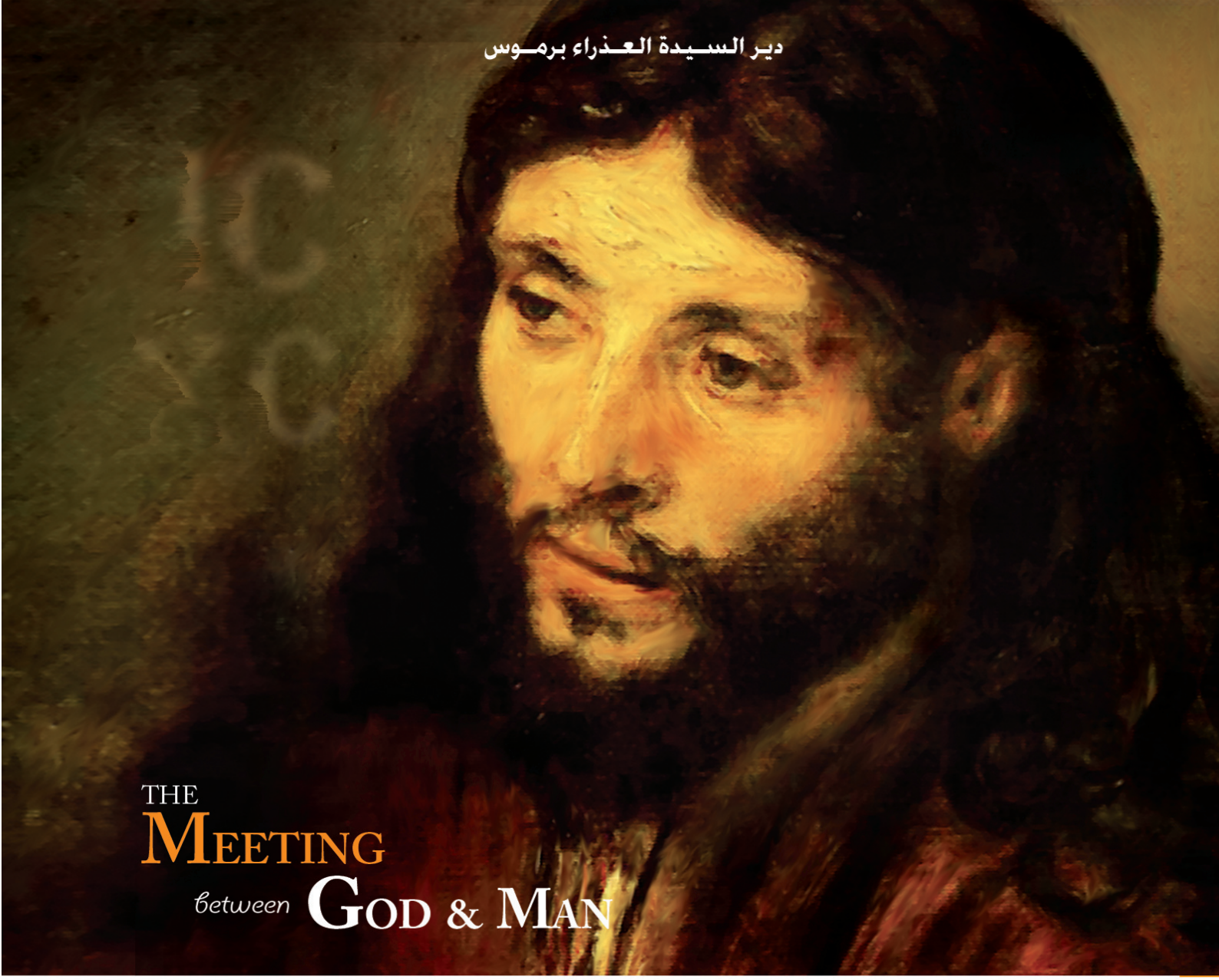

التلاقي بين الله والإنسان

الراهـب سـارافيـم البرمـوسـي

مراجعـــة

نيافـة أنبـا ايســيذورس

التلاقي بين الله والإنسان

التلاقــي بين الله والإنســان

إعداد

الراهــب ســارافيــم البرمــوسي

ديــر الســيدة العــذراء برمــوس

بريــة شيهيــت

كتاب: **التلاقي بين الله والإنسان**

إعداد: **الراهب سارافيم البرموسي**

مراجعة: **نيافة أنبا ايسيذورس**

طبع بمطبعة الدلتا

٢٤ شارع الدلتا سبورتنج إسكندرية ٥٩٠١٩٢٣ (٠٣)

تصميم الغلاف: أحد الآباء الرهبان بالدير

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٤٣٧٢/ ٢٠٠٩

رقم الإيداع الدولي: 10 - 64 - 5088 -977

© **حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناشر**

الطبعة الأولى

مارس ٢٠٠٩

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

نيافة أنبا ايســــيذورس
أســقف ورئيـس دير الســيدة العـذراء برمــوس

مدخل

هناك لوحة شهيرة للرسام الفرنسي **جوجان** *Gauguin* يتساءل فيها:

مِن أين أتينا؟
ومَن نكون؟
وإلى أين نمضي؟

إننا نقف اليوم على مفترق الطرق بشكلٍ خاص. فالعصر الحالي الذي يرتحل بنا في سرعة مذهلة تجعلنا نفقد إتزاننا الوجودي، هو عصر الإنسان. فالإنسان اليوم هو المحور والغاية والوسيلة، خاصة بعد نمو فكر الإلحاد السلبي الذي يتجاهل الله ويفكّر في وجود الإنسان ككيان متواجد في الحياة، مستقلاً عن أية قوى عليا!!

ولعلنا نرى في إنسان اليوم مزيج من العادات والثقافات والتوجهات والموروثات المتناقضة بفضل الثقافة الكوكبية التي تسيطر على البشرية وتحوُّل العالم إلى قرية صغيرة!! لذا فإننا نقف عاجزين اليوم عن تصنيف إنسان العصر في قوائم تراثية أو ثقافية أو حضارية ذات صبغة أحادية. فإنسان الأمس القريب كان مجموعة متناقضات وجدانية بسيطة من النور والظلمة، من الروح والطين، من الأمل واليأس ... ولكنها دخلت في بوتقة

العصر والثقافة الموحَّدة تحت سقف بيئي واحد، فأنتجت إنسانًا أُحادي الوجهة.

بينما إنسان اليوم (خاصة في مجتمعنا الشرقي) هو كائن هجين!! فهو يتخبط بين الثقافة الغربية المتجددة والمستحدثة التي تَفِد عليه من كل صوب وجهة، وبين التراث الشرقي الحامل سر الماضي بسحره وجاذبيته. هو حائر بين حنينه للماضي الذي يمثل جذوره، وبين انبهاره بالحاضر الذي يشهد بتميزه وإبداعه. إنه في حالة تنازع دائم بين القيم الموروثة التي تحمل عبق الأزمنة الغابرة، وبين القيم المستحدثة التي أصبحت في متناول يديه بفضل التقدم التكنولوجي الهائل في مجال الاتصالات والإعلام والأقمار الصناعية ...

لذا فإنَّ محاولة البحث عن الإنسان في ذلك البحر المتقلب من الأفكار والثقافات والموروثات، هي عملية شاقة للغاية وخاصة على من هم معنيون بالإنسان، من فلاسفة وعلماء إجتماع ومتخصصي الطب النفسي ...

ولكننا سنُعيد طرح الوجود الإنساني تحت منارة الله مرة أخرى. فالله هو المُعامِل الذي يستطيع أن يعيد معادلة الإنسان إلى إتزانها ويجعلنا نستطيع أن نرى أبعادًا إنسانية جديدة على ذاك الضياء الإلهي. ولكننا لن نغفل التحدث في البداية عن المحاولات الإنسانية لفهم الإنسان ليس من خلال التحليل المتكامل، لأن ذلك يستلزم إفراد مجلدات كاملة ولكننا

سنحاول أن نرصد محاولات الفكر الإنساني ونجمعها كوريقات منفصلة حتى نستخلص منها رؤية أكثر وضوحًا للمنظور الفلسفي للإنسان. ثم سنعود بالزمن إلى نقطة البدء، لحظة الخلق، لنفحص كتابيًا وآبائيًا من هو الإنسان كمخلوق على صورة الله. وبعدها سنتوقف عند اكتمال الإنسانية في شخص المسيح المتجسد، وسنرى معًا كيف أنَّ التجسد هو الحل الوجودي الدائم والأبدي لقلق وحيرة ومخاوف البشرية التائهة في قفر الحيرة والتساؤل والتي تبحث عن ضياء في أودية الظلمة!! فلا عجب أنها ستظل تائهة وحائرة، وكأن تيه بني إسرائيل قديمًا سيظل مثالاً لكل تيه إنساني، حينما ترفض البشرية، الله الظاهر في الجسد، يسوع، فترفض القارب الآمن والميناء الأكيد لرحلتها بين شاطئي الزمان والمكان.

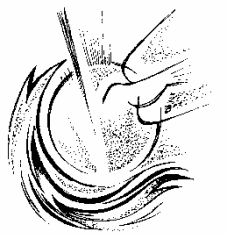

أَعددِ الزادَ لطريقـك الطويـل، أيها الحكيـم
انـزع ثقـل النـوم من قلبـك أيهـا الضيـف المدعـو
رتِّـب أمتعتـك للرحيـل أيها الغـريب
لقـد لاح نـور الصبـاح يا عابر الطـريق
فلمـاذا تنـام ؟
انهـض وهيئ نفسـك أيها الملاَّح المسـافر في البحـر
قـم وجهِّـز عـدَّة سفينتـك
لأنـك لست تعلـم متى تـأتي الريـح
التي تحملـك بعيـدًا

مار اسحق

الفصل الأول

الإنسان في فكر الإنسان

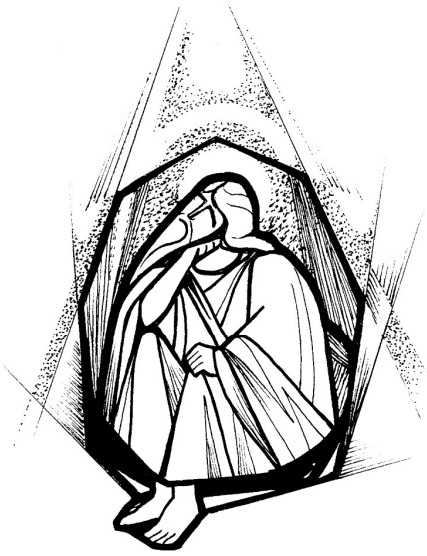

إنَّ الإنسان في كل حركة من حركاته يتبع الطريق ...
والطريق كشيء مليء بالظلال وغير متمايز
ومع هذا ففي داخله تكمن صورة
مليء بالظلال وغير متمايز
ومع هذا ففي داخله جوهر
معتم ومظلم
ولكن في داخله تكمن ماهية

فيلسوف صيني

خلق الإله للإنسان وجهًا واحدًا
ولكنه يصنع بنفسه بقية الوجوه

حكمة مصرية قديمة

لقد أدرك الإنسان منذ البدء، أن هناك ثالوثًا يشكل الوجود، يتمثل في **القوى غير المنظورة والطبيعة وذاته**. وحينما رفع عينيه إلي الفضاء الأعلى بحثًا عن إله، بدا له هذا الإله سرًا غامضًا مختومًا، فهو لم يتخذ من المادة وسيلة للظهور في الكون، لذا كان التعرف عليه يشكل صعوبةً للإنسان وأصبح حديث الإنسان عن الله كحديث الضرير عن جمال الطبيعة، أو الأصم عن عذوبة الألحان!! فتخيله قوة تحرِّك الكون؛ كلماته هي مقدرات البشر. رآه قوة انفعالية؛ يغضب ويبتهج، ينتقم ويكافئ بحسب خضوع الإنسان له!! لذا فقد حاول الإنسان استرضاء هذا الإله بالعطايا والذبائح والغنائم ... وكأنّ إله الإنسان القديم كان يشعر بخطر يتهدد مملكته من الإنسان، لذا فقد كان يحاول إرهاب البشر ليضمن السيطرة عليهم وبالتالي دوام مملكته العليا!!.

ولكن خيال الإنسان لم يحتمل غموض الإله المحتجب؛ فجسَّده شجرة وتمثالاً وشمسًا ونارًا ... وأقام له معابد وكرَّس له كهنة. حارب باسمه وقتل تحت لوائه وصيَّره إلهًا!! إلاَّ أنه لم يكن سوى خياله وغرائزه ومخاوفه، متجسدة في المادة!!

وكان العنصر الثاني هو الطبيعة، التي ترجَّى الإنسان أن يتخذها رفيقةً على درب الحياة، خاصة مع وعيه الذي بدأ يتنامَى بأنه سيد الخليقة وأنها عالمه الذي سيدور في فَلَكه طالما هو ساكن في جلباب اللحم والدم. ولكنه وجد أن الطبيعة ذاتها متمردة عليه. فلم تقبل الطبيعة أن تخضع للإنسان الساقط من فردوس النعيم وأصبحت تمثل للإنسان صراعًا ولغزًا لا يستطيع أن يتعرف على شفرته، ليروضها ... وصار في صراع مستمر مع الطبيعة، التي تهدد وجوده وتشعل مخاوفه من غدٍ قد يحمل له مفاجآت غير سارة. فالطبيعة نشبت مخالبها في الجسد البشري من خلال الزلازل والبراكين والأعاصير والأمواج العاتية والصحاري المقفرة والحيوانات المفترسة ... وهكذا عادَت الطبيعة، الإنسان، وصارت العلاقة بينهما هي صراع البقاء للأقوى!!

وتبقَّى الإنسان أمام ذاته، كآخر عناصر ثالوث الوجود الذي حاول أن يسبر غوره، إلا أن انشغال الإنسان بالطعام والشراب والمسكن وإقامة النسل؛ احتياجات الإنسان الأوليَّة التي كان عليه أن ينتزعها من براثن الطبيعة، جعلته يبتعد عن ذاته ويتغرب عنها ولا يتساءل عن أصله وغايته ولا يثير دهشته الموت الذي يرتحل بالإنسان صوب المجهول!! فقد كان انشغاله بتأمين الحياة بمثابة دائرة يدور على وقع رُحاها دون أن ينتبه

لجدوى هذه المسيرة الدائرية ودون توقُّف لمعرفة إلى أين ستقوده؟!

ولكن سرعان ما رجع الإنسان يبحث عن ثالوث الحياة؛ الله والطبيعة وذاته، بعد أن بدأ يُؤمِّن أوليات احتياجه وينصت إلى ذلك النداء الخافت الذي يَرِن صداه في وجدانه، متحدِّثًا عن أصل عظيم وغاية عليا وإله مترقب. وكأنه تيقظ على حقيقته الغائبة وعَرِف أن التساؤل عن الحياة هو ضرورة من ضروراتها، فقد قال **سقراط** قديمًا:

إن حياة لم تُفحص،
لا تستحق أن تُعاش

واكتشف الإنسان أن بحثه في ذاته يرسم له ثالوثًا جديدًا؛ هو أبعاد الإنسان التي يسير بها أينما حلَّ وهي:

- علاقته بما هو باطن في داخله (البعد الداخلي)
- علاقته بما هو/ من هم حوله (البعد الأفقي)
- علاقته بما/ بمن هو فوق (البعد الرأسي)

تميز الإنسان

لقد وجد الإنسان أثناء مسيرته اليومية، التي يستكشف فيها أسرار الأرض التي تأويه والخليقة التي تشاركه طعامه وشرابه، أن هناك فجوة كبيرة بينه وبين الخليقة ... فقد رأى

أنه الكائن الوحيد الذي يفكر ويتحاور ويقرر ويتذكر الماضي ويتطلع للمستقبل ... إنه الكائن الوحيد الذي لا يتكيف مع الواقع بل يعمل على تغييره بل ويسعد بما يعمل ... إنه الكائن الوحيد الذي يُحب بقرار حر وليس بغريزة موجهة ... إنه الكائن الوحيد الذي لا يكتفي بما هو بين يديه بل يعمل ويتحرك لكيما يزيد من سلطانه الإنساني على ما هو حوله. ومن يرصد ظواهر التاريخ يجد أن الإنسان منذ القِدَم لم يقبل بأن يكون قطعة جامدة من المادة تتحكم فيها قوى الطبيعة، بل سنجده يحاول على مر العصور أن يُخضِع الطبيعة لخدمته، تارةً بالعمل الدؤوب وتارةً أخرى بالتعاويذ والرقى والابتهالات للقوى العليا التي تقدر أن تؤثر على الطبيعة!! بل يمكن القول أن **التاريخ الإنساني كله هو محاولات من الإنسان لتقرير مصيره رغمًا عن قانون الطبيعة.** لذا فإن **الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه (فاعل)**، فالحيوانات ليست سوى مؤدِّية للفعل بدافع غريزة فطرية بلا أي تدخل للوعي لتغيير مسار الفعل. والطبيعة خاضعة لأوامر عليا من الإله المتحكِّم في الكون. بينما يتفرد الإنسان وحده بكونه هو الذي يختار أن يفعل بحرية ويبتكر فيما يفعل ويعي الدافع والغرض من الفعل (ولو نسبيًا على قدر سعة ورجاحة عقله) ويتحمل بإرادة حرة عواقب هذا الفعل، وهذا يضعه أمام كثير من القرارات التي يتوجب عليه أن يفصل فيها، كما يلقي به في بحر من الخيارات التي

ينبغي عليه أن يختار من بينها، **فالقرار والاختيار هما مكونان أساسيان للمسيرة الإنسانية** وهما اللذان يوضحان هويته الذاتية وتوجهاته العامة في مسيرة الحياة ولكن القرار والاختيار يتأثران بعامل آخر، إنه الزمـن ...

الزمن

فالإنسان أيضًا هو الكائن الوحيد الذي يرصد حركة الزمان ويحاول أن يحوِّله إلى إنتاج وعمل. فهو الوحيد بين كل الخليقة الذي يشعر بقيمة وأهمية الوقت؛ فالزمان هو نسيج وجود الإنسان وهو يمثل للإنسان دافع وعمل وقرار، اختيار ونتيجة، وعي وخبرة ونضوج ... يمثل إتصال وانفصال، حضور وغياب، تقارب وتباعد ... بهجة وحزن، مرح وكآبة، فرح وألم، انطلاق وانحسار. وتُصوِّر لنا الأساطير اليونانية أنَّ (خرونوس)[1] إله الزمن، كان يُرسَم وهو يلتهم أبنائه، في إشارة لاستيعاب الزمان لكل الأحداث.

ولعلنا نجد أن وعي الإنسان بالزمان كثيرًا ما يكون مشوبًا بالخوف لأنه يقترب به دومًا من النهاية، بعيدًا عن بهجة البدايات، لأنه يعني فيما يعني؛ انقضاء اللحظات الجميلة المبهجة المُشِعَّة في حياة الإنسان، مما يجعل الإنسان يصرخ

[1] لقد كان الزمـان إلهـاً أساسيـاً في الكثير من الديانـات القديمـة؛ فهو (ذيرفـان) عند الفـرس، و(ساتـوران) عند اللاتـين، و(خرونـوس) عند اليونـان.

والدموع ملء مقلتيه في ألمٍ، يسترحم قاطرة الزمان لتتوقف، حتى يتسنَى له أن ينعم بلحظات من الخلود المُغلَّفه في ورق الزمان!!

ألم تكن تلك هي رغبة القديس بطرس حينما عاين بهاء وروعة المجد أثناء التجلي فقال: "جيد يا رب أن نكون ههنا" ولسان حاله الداخلي يصرخ إلى المخلِّص؛ (أوقف الزمان، نريد أن نبتهج بمجدك المُعلَن، دون أن يفسِد الزمان بإلحاحه على المسير روعة تلك اللحظات).

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يدرك طوفان الزمن الذي يأتي ليأخذ في طريقه أجمل لحظات الحياة!!... وعن تلك الحركة المؤلمة لقلب الإنسانية، يكتب الدكتور **زكريا ابراهيم** عن قسوة الزمن في كتابه (مشكلة الإنسان) قائلاً:

وربما كان أقسى ألم يعانيه الإنسان،
هو ذلك الألم المنبعث من استحالة عودة الماضي،
وعجز الإنسان في الوقت نفسه
عن إيقاف سير الزمن!
حقًا، إن الزمن ينتزع منا رويدًا رويدًا
كل ما سبق له أن منحنا ...
وإنّا لنحاول في حياتنا العادية أن ننسى الزمن
أو نتناساه بأي ثمن،
ولكن كل ما في التجربة ينطق باسم الزمان،
وكل ما في الزمان، يذكِّرنا بالفناء!

ألا يعفي الزمن على سعادتنا الماضية،
حتى ليكاد يطمس معالمها
ويجعل منها ذكريات باهتة؟
ومع ذلك، ألسنا نندم على تلك السعادة الماضية،
ونؤنِّب أنفسنا لأننا عشناها
في غفلة ومن دون حساب؟
ألسنا نتحسر على ذلك الماضي
الذي انقضى سريعًا كعمر الزهور،
ونتمنى على الله لو أتيحت لنا الفرصة لأن نستعيده
ولو في لحظة إلهية خاطفة؟!

ويكتب لنا الكاتب الفرنسي **جان دورمبسون** *Jean d'Ormesson* رؤيته عن الزمن، على لسان شخصية الخالق في روايته (خلقة العالم *la création du monde*) موجهًا كلامه إلى بطل الرواية، قائلاً:

المستقبل مخيف لأنك لا تعرفه
ولأنه آت لا محالة،
ولأن ما لا نعرفه يثير القلق فينا دومًا.
والماضي قاسٍ لأنك عرفته ولأنه غادرك إلى الأبد،
وقد تجمعت كل حسرات الدنيا
في هاتين الكلمتين: (إلى الأبد)
على جانبي حاضرك الهش، يقف وحشان ظامئان؛
الماضي والمستقبل،
ينتظران ابتلاع عصارة الزمن ...
الأول - المستقبل - يتحرق شوقًا

للارتماء في أحضان الحاضر،
والآخر - الماضي - فاغر فاه لالتهام الحاضر ذاته.
وبمجرد أن يتحوَّل المستقبل إلى حاضر،
يكون الماضي قد أتى عليه!!
إنَّ ما تسمونه (الحاضر) أنتم البشر،
ليس سوى الهامش الضيق، حبة الرمل،
الشعرة الهزيلة
التي تفصل ما بين الماضي والمستقبل.
في البدء، حين كان الزمن يستعد للبزوغ
من رحم الانفجار الكوني الأولي،
لم يكن للماضي أي وجود،
المستقبل وحده كان موجودًا.
التاريخ لم يبدأ بالذكرى، بل بدأ بالوعد.
لم يكن هنالك ما يجب تذكُّره،
كان كل شيء مفتوحًا على الأمل،
وأول تصنيف للوعي التاريخي لم يكن الذكرى،
وإنما الإشعار بالحدوث، الانتظار، الوعد.
لكن مع جريان الزمن ومع تطور الكون
انطلاقًا من بروز "رأس الدبوس" (إشارة إلى بدء الخليقة)،
بدأ المستقبل الرحب بالانكماش،
وانقلب الوعد إلى ذكرى، فيما انتفخ وعاء الماضي.
ما الكون سوى آلة لإنتاج الماضي ...
فالتاريخ في محصلته؛ صراع بين الماضي والمستقبل
حول اقتناص لحظة راهنة،
موجودة دائمًا وأبدًا،

إنَّ من عواقب ذلك الألم الخارج من جعبة الزمن الذي ينشب أظافره في قلب الإنسان، أن يصبح الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصيبه الملل؛ فالملل هو أجنحة الزمان التي تحجب ضياء حرية الانطلاق عن الإنسان. وبتعبير **نيتشه** *Nietzsche* (في قصيدة شعرية بعنوان: الأوحد)؛ [قد أصبح الزمان ملولاً من الزمان!!] وكأن الزمان ضجر من كونه زمانًا، يلقي بكلمات الختام من على رابية الوجود الإنساني ويشيعهم إلي المجهول وسط دموع وألم المحيطين ...

ونتيجة لذلك الألم الناتج من الزمن، يصبح الإنسان هو الكائن الوحيد الذي ييأس من الحياة حينما يرى الزمان بمنظار الوجود الحالي، بمعزل عن الحياة بمنظار الغاية المنشودة. فتعتصره قيود الحس التي تلقيه في حيرة وتساؤل بلا صدى ولا جواب. فيحاول أن يتخلص من قسوة الزمان بالانتحار!! فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقضي على ذاته ويضع حدًا لوجوده وحياته، نتيجةً لوعيه المتألم بالحيرة!!

إن ذلك التفرد السلبي للإنسان الذي يجعله يتخذ قرارًا خاطِئًا يدمر به وجوده ووجود من حوله، هو الذي جعل الإنسان منفردًا في قدرته على فعل الشر!!

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي بمقدوره أن يفعل الشر. هنا ونتسائل متى دخل ذاك اللص إلى أرضنا ليبذر فيها زوانه؟؟ متى نمَى هذا الزوان؟؟ ومن أين استقَى مياهه؟؟ من أين حصل على ضوئه؟؟ ومن الذي شدد جذوره في أرضنا حتى أن ترابنا امتزج بنبتة الخطيئة المتسلقة على جدران الزمن!!

ولعل الإجابة تأتي من الإنسان ذاته، لكونه الكائن الوحيد الحر (نسبيًا) ومن ثم فهو **الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يسقط بميله للشر!!** فالطبيعة والمخلوقات كلها تقف من الحياة موقف الحياد، تشاهد التحولات الإنسانية ولا يعنيها سوى الغذاء والتناسل، بينما الإنسان المتواجد في صميم الحياة، يقف موقف المتأمل المفكر، ليمارس حريته في الاختيار ولكنه فيما يختار، يشكِّل - دون أن يدرى - هويته الجديدة التي ستلازمه طوال فترة وجوده بين دفتي الأرض والزمن، حينما يختار بين الخير واللاخير (الشر) ...

ولكي ندرك منشأ الشر في الوجود، ينبغي لنا أن نعود إلى القصة الأشهر في التاريخ البشري، التي قامت فيها الحية مع حواء بدور البطولة المطلقة. فبينما كانت الحية تلقي بكلماتها الماكرة على سمع حواء، كانت تبذر بيدها الأخرى بذرة الشر الأولى في تربة الإنسانية. فالشر قد نشأ نتيجة اختيار حر

للملائكة، إلا أنَ بذور الشر بقيت وحيدة في مخازن الشيطان تبحث عن أرضًا خصبة (حرة)، لتنمو فيها. وقد تعمقت تلك البذرة الأولى في تربة الإنسانية حينما ذهبت حواء بخيالها في جمال الشجرة الحاملة سر الألوهة!! وفي اللحظة التي امتدت فيها يد حواء لتقطف الثمرة، ارتوت تلك البذرة بأول فعل حر خاطئ، فغذاء نبتة الشر هو فعل الخطيئة. وبينما كانت الإنسانية، في آدم وحواء، تشد رحالها إلى أرض الشقاء بصدور الحكم الإلهي، كانت البذرة تشق تربة القلب ليخرج أول برعم شيطاني من قلب الإنسان ومن ذلك اليوم فإن ذلك البرعم الصغير صار غابة كثيفة تتآوى تحت أغصانها طيور الظلمة الدهرية ... وأصبح قلب الإنسان مائل للشر، فبرودة وظلمة الخطيئة النابتة على جدرانه منعت عنه نور الحياة المنبعث من شمس البر، الأزلي الوجود!!

ولكن من بين ظلمة الشر المحيطة بسماء الإنسانية، يظهر ضوء خافت في قلب الإنسان ينير طريقه، قد وضعته يد الله الحانية حتى لا يتيه الإنسان في الحياة بلا مرشد ولا معين؛ إنه الضمير... من هنا كان **الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له ضمير** ينبهه ويحذره ويبكّته بل ويؤلمه في الكثير من الأحيان حينما يتغرب الإنسان عن غايته الأصلية ويتدنى ليشارك الخليقة غير العاقلة، اهتماماتها الجسدية.

إن ضمير الإنسان أشبه بالعضلة التي تتشدد وتنمو من خلال التدريب المستمر والمتواصل. والضمير هو بوصلة الإنسان الأولى التي زوَّده الله بها حينما شدَّ الإنسان رحاله إلى الأرض. والضمير يميل بمؤشره دائمًا للخير وحينما يقوم الإنسان بعملٍ ما به رائحة الشر، يبدأ الضمير في إرسال نداءات إلى العقل والقلب والحواس والأعضاء وكأنه يستغيث بالإنسان من الإنسان!! يريد أن ينبهه إلى خطورة ما يفعل، يريد أن يوقظه من سُبات الشر الذي غاب به عن وعي الخير المنقوش في وجدانه. لذا فإنَّ الضمير هو الضوء الأحمر الذي يستوقف الإنسان وينبِّهه إلى مدَى انحرافه عن البهاء الأصلي الذي وُجد عليه قبل تلك الحادثة الأليمة (السقوط) التي تركت بصماتها على ملامحه الكيانية، فشوهتها ...

ولكن الضمير ذاته وإن كان يميل للخير، إلا أن تعريف الخير الذي يتلقاه الضمير في سني الإنسان الأولى، يكون بمثابة النموذج الأصلي الذي يسير عليه في تقييمه الذي يقوم به مع كل عمل وكل فكر في حياة الإنسان. وهذا يقودنا إلى اشكالية تشكيل الضمير الإنساني على الخير وليس على ما يعتقد البشر أنه الخير! ونأخذ من العهد الجديد مثالاً، نرى من خلاله مدى تأرجُح الضمير بين الحقائق وأشباهها.

يروي لنا سفر الأعمال عن رد فعل رئيس الكهنة ومن معه بعد أن بدأت الآيات تتزايد على أيدي الرسل وبدأ فعل الروح يكون ظاهرًا للجميع؛ أنهم قبضوا على الرسل ليكيلوا لهم الإتهامات ليلاقوا نفس المصير الذي لاقاه يسوع على أيديهم، أي الموت ...

" فقام رئيس الكهنة وجميع الذين معه،
الذين هم شيعة الصدوقيين،
وامتلأوا غيرة،
فألقوا أيديهم على الرسل
ووضعوهم في حبس العامة "

(أع ٥ : ١٧ – ١٨)

وما يسترعي انتباهنا أن ما قام به رئيس الكهنة ومن معه، كان نتيجة غيرة على اليهودية!! وهذا يذكّرنا مباشرة بالأربعين رجلاً الذين أخذتهم الحمية تجاه بولس، فنذروا ألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقتلوه (أع ٢٣ : ٢١) وقد كان هذا النذر نتيجة غيرة على اليهودية أيضًا وهو ما يضعنا أمام سؤال محيِّر، كيف تدنَّى مستوى الدين ليَنذر القتل!! كيف للعقيدة التي تسلمها موسى على الجبل من يد اللّه المحب، أن تتحول إلى سيف في أيدي أبناء موسى لإراقة الدماء؟ كيف يستخدم البشر الناموس الإلهي الموضوع للسمو بالبشرية ليعودوا به إلى عصور القبلية؟ وهل يستطيع الإنسان أن يعيد قراءة النصوص الدينية والتاريخ الديني ليبرِّر لنفسه سلوكه الدموي؟ هل الدين ـ كما

ادَّعَى بعض الفلاسفة ـ كان سببًا مباشرًا في معظم الحروب والمآسي الإنسانية؟ وأين الضمير من مثل تلك الانحرافات التي تُفتِّت البشرية تحت لواء الدين؟!

وتقودنا تلك التساؤلات جميعها إلى إجابة واحدة وهي؛ **تشكيل الضمير**، فلقد تم العبث بضمير الشعب وهم بعد صغارًا، حينما كان الضمير كقطعة الطين النيئة التي يسهل التعامل معها لإخراج أي شكل نبتغيه، فضمير الشعب اليهودي ترعرع على القبلية والقومية تحت سقف المجمع والهيكل والدين، مما أدى إلى خلط صارخ بين عمل الله وأعمال البشر!! وقد أتى هذا الخلط ثماره في عدم قدرتهم على رؤية الله في المسيح يسوع، بل رأوا ـ بحسب ضمائرهم المعدَّلة ـ أنّ قتل يسوع وأتباعه ضرورة لحماية الله والناموس!!

ومن هنا نَخلُص إلى وجود إمكانية جديدة في الإنسان، **فهو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يكذب على ذاته ويُورِّث أبنائه تلك الكذبة لتصبح قانون لا يستطيعون الانفلات من سطوته!!**

هنا وتبرز أهمية التنوع والتعدد في حياة الإنسان. فلو لم يستطِع الإنسان أن يسمع لصوت الضمير الملوَّث بالمطامع البشرية، يخرج عليه آخر، ليصرخ فيه صرخات الحق وكأنه ضمير متجسد لمن تشوهت ضمائرهم وتصبح تلك الصرخات أشبه بالصدمات الكهربائية لتعيد الحياة لتلك الضمائر التي

انطفأت فتيلة ندائها داخل القلب للتحذير والتوبيخ على طرق الشر.

من بين هؤلاء كان الأنبياء الذين صرخوا من على رابية الحق ليوقظوا البشر من سُبات الشر الذي ألقَى بظلاله عليهم، إلا أنَّ البشرية أبكمت تلك الأصوات لتحيا في صمت قبر الشهوة، مفضلين طرق الموت عن الإصغاء لصوت الحياة. ومن هؤلاء يوحنا المعمدان؛ الصوت الصارخ في برية الضمائر التي تسكن في القبور، هذا الذي آثر أن يكون بلا رأس من أن يكون بلا ضمير. فقد كان ضميرًا لليهود الذين اتَّبعوا تقاليد الناس التي تترصد الإنسان، بدلاً من وصايا اللّه التي ترتقي بالإنسان ...

من هنا كانت أهمية الآخر في حياة الإنسان، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحيا مع آخر، ليتلاقى معه خارج ذاته وهو الذي يكشف له حقيقة ذاته ...

الآخر

إنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي بإمكانه أن يخرج من قوقعة الذات إلى الآخر. وقد وصفه **موبس بلوندل** *M.Blondel* بأنه:

ذرة صغيرة قد أُلقي بها في وسط خضم زاخر
وهو إن كان لا يمثل سوى نقطة صغيرة

في محيط الكون
إلا أنه مع ذلك، لابد من أن يشع فيما حوله
منتشرًا على شكل موجات، متجددة متلاصقة،
لاتكف عن الإتساع ...[٢]

لذا فالإنسان هو الوحيد بين المخلوقات الذي لا يستطيع أن يتحقق أو يكتمل أو ينضج إنسانيًا إلا من خلال خروجه المستمر من ذاته؛ فوجوده *L'être* لن يتحقق إلا من خلال الآخر *L'autre* (بحسب التعبير الفرنسي الشهير).

ويفسر **كارل بارت** [٣] مفهوم خِلقة الإنسان على صورة الله *imago Dei* (سنتناوله بالتفصيل في الفصل الثاني) بأنها القدرة على دخول في علاقة (أنا/ أنت I-Thou) والدخول في حوار دائم مع الآخر. ويضيف **والتر نابس** (العالِم النفسي) قائلاً: [إنَّ الحقيقة تبدأ مع اثنين].

وذلك المفهوم الإنساني الأصيل هو نتيجة خِلقة الإنسان على مثال الثالوث؛ فالوحدانية هي اكتفائية بالذات لا تحقق حركة نحو الآخر. وبدون تلك الحركة الساعية للآخر، يبقى الحب مفهوم نظري حبيس عقول وأسير روايات، دون تجسيد عملي له في واقع الله والإنسان ...

---

[2] M.Blondel, *L' Action* , Alcan, Paris, t. 2, pp. 178
[3] K. Barth, *Church Dogmatics* III/Part One, ed. G. W. Bromiley and T. F. Torrance (Edinburgh: T & T Clark, 1958 [Eng. trans.]), p.183

فضرورة الآخر بالنسبة للإنسان هي ضرورة تعدد الأقانيم بالنسبة لله ... فلو كان الإنسان مخلوق ليحيا وحيدًا، كان ذلك إعلانًا عن وحدانية بلا ثالوث. ولكن لأنّ الإنسان مدعو لأن يحيا في شركة وسط جماعة، يجب أن يكون الله (الذي خلق الإنسان على صورته) واحد في الجوهر مثلث الأقانيم. فالثالوث إذًا، يشهد لضرورة الآخر في واقع الإنسان، كما أن الكيان الإنساني الذي يتطلع لآخر هو شهادة باطنية عن إله لا يحيا في عزلة الوحدانية ولكنه إله يحيا في شركة جوهرية بين أقانيم متعددة (الثالوث).

ولعّل العائق الأكبر أمام خروجنا من ذواتنا للقاء الآخر هو خوفنا الدائم والمستمر من فقدان قدرة السيطرة على عالمنا الخاص حينما يدخله آخر.

فالآخر هو تهديد لعالمي الذي بنيت جدرانه من خلال التفاعل مع المجتمع ومن خلال النشأة والتربية والبيئة والثقافة ... تلك العوامل التي شكّلت خبراتي الشخصية وقناعاتي الذاتية. وتلك القناعات والخبرات تصبح بمرور الزمن هي المتحكّم الأول في سلوكي الحالي والمستقبلي. وبدخول آخر في عالمي الشخصي، هذا يعني أنه يجب علىَّ أن أتراجع عن بعض قناعاتي الشخصية التي تشكل شخصيتي بل وحياتي وأقبل بمنطقة وسطية ألتقي فيها بهذا الآخر. لذا فإن الإنسان يظل أمام خيارين؛ العزلة أم المشاركة ... الانطواء داخل كهف

الذات، أم الشركة بكل ما تحمله تلك الكلمة من بذل وتضحية وتنازل من أجل تحقيق هذا اللقاء مع الآخر.

فالآخر إذًا، ليس ضرورة زائدة وليس جحيمًا كما أعلن كارل ماركس ولكنه وسيلة الإنسان الوحيدة ليتعرف على ذاته ويخرج بها من برجها العاجي الغارق في أحلام الوحدة، بل ويقدمها على مذبح الوعي، فيشعر وكأن بحيرته الراكدة قد تحركت بمشاعر دافئة، تلمس كيانه الداخلي وتَصغُر أمامها أية تضحية بالذات!! فيدرك أن الخسارة الناتجة عن الشركة مع الآخر أعظم من ربح العزلة مع الذات!!

إنَّ هذه الحركة الصادقة في كيان الإنسان والتي تجعله في تَطلُّع للآخر هي حركة الحب وهذا يذهب بنا إلى تعريف جديد للإنسان ألا وهو؛ **أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يحب ...**

الحب

وينشد لنا **جبران** في روايته القصيرة (على باب الهيكل) أنشودة عن روعة ذلك الشعور الذي يمتلك النفس حينما ينسكب عليها ذلك النور العلوي وتلك النعمة الإلهية؛ أي الحب، فيقول:

ما هذه الأجنحة التي ترفرف حول مضجعي
في سكينة الليل،
فأسهر مترقبًا ما لا أعرفه،

مصغيـًا إلى ما لا أسمعـه،
محدِّقـًا فيما لا أراه،
مفكـرًا بما لا أفهمـه،
شاعـرًا بما لا أدركـه،
متأوهـًا، لأن في التـأوّه غصّات
أحبّ لديّ من رنّـة الضحـك والابتهـاج،
مستسلمـًا إلى قـوة غير منظـورة، تميتنـي وتحييني
ثم تميتنـي وتحييني
حتى يطلـع الفجـر ويملأ زوايـا غرفتـي
فأنام إذ ذاك وبين أجفـاني الذابـلة
ترتعـش أشبـاح اليقظـة،
وعلى فراشـي الحجـري تتمايـل خيـالات الأحـلام ...

فالإنسان حينما خُلِق، تميز بقلب خفَّاق يحب وعقل واعٍ يدرك. فالحب ليس مكوِّن دخيل على الإنسان ولكنه طاقة دفينة في أعماق الإنسان، عليه أن يكتشفها كل يوم، ليتذكر من خلالها إنسانيته وليعبِّر بها عن سموه. ولعلنا نتفق أن الحب هو سمة إنسانية لم يولد إنسانًا بدونها ولا يستطيع إنسانًا ما في الوجود أن يدَّعي أمام اللّه معاتبًا، أنه خُلِق منزوع القلب!! أو وُلِد متحجر المشاعر!!

فالحب هو مكوِّن إنساني مقترن بتواجده في الحياة؛ فالإنسان إن أمكن له أن يحيا بلا قلب عضوي يضخ الدماء إلى أجهزة الجسم المختلفة، أمكن له أن يحيا في الوجود بلا حب يتلاقَى به مع الآخرين ومع اللّه!!

ولكن الإنسان في سعيه اليومي لم يرى أمامه سوى المادة ولم يستطع أن يقاوم دفع الغريزة، فجنح للمادة واستلذ اللذة العابرة ولم يحاول أن يتوقف عند لذة الكيان غير المرئية، التي تعمل في روحه الإنسانية من خلال الحب ... فعرَّف اللذة بأنها الحب وأصبح الحب، في نظر إنسان التراب، هو حالة الشبع الذاتي، بدلاً من كونه حالة خروج من الذات إلى الآخر ليشبعا معًا بالمشاركة والبذل... فصار الحب في ذهن الإنسان هو الإيروس!! وتغنَّى به الشعراء هادمين تلك الكلمة السمائية (الحب) بإلباسها ثوب من تراب!!

و(**إيروس**) هو إله الحب عند اليونان، كان دائمًا ما يُصوَّر مقترنًا بـ (**ديونسيوس**) إله الخمر، فالخمر تعمل على إيقاف سلطان العقل، فتنتج حبًا غير عاقل، يهدف فقط إلى إطفاء نار غريزية متأججة في الجسد ... لذا فحب الإيروس هو الحب المادي غير العاقل.

لقد وضع كثير من الفلاسفة تصنيفًا ثلاثيًا للحب وهو:

✣ **حب الإيروس** *eros* وهي المحبة المادية التي تهتم بالتواصل المادي مع الآخر وتبرز في العلاقات الجنسية غير السوية وهي محبة الأخذ فقط.

✣ **حب الفيليا** *filia* وهي محبة الأُلفة والصداقة والأمومة وهي محبة الأخذ والعطاء.

✣ **حب الأغابي** *agape* وهي المحبة الباذلة المضحية اللانفعية، التي تعطي لمجرد العطاء، بل وتعطي لمن لا يستحق العطاء، كما أنها تعطي لمن يجحد ويحتقر يد العطاء ...

ولقد عرَّف البعض الحب ـ قديمًا ـ بأنه عطاء متبادل وأعلنته **مدام دوستال** بأنه؛ [أنانية اثنين!!] إلا أن هذا التعريف حجَّم من إتساع الحب، لأنه يحده في قالب نفعي مشروط ... ولعل السبب في ذلك أن الحب قديمًا لم يتعرف سوى على وجه الإيروس أو وجه الفيليا.

فالإيروس هو الحب المادي الذي يأخذ فقط، فهو يستهدف الآخر ليُشبع احتياجاته الجسدية والنفسية وهو بتعبير الفيلسوف الألماني **زمل** *Simmel*؛ [إرادة الامتلاك]. ويرتقي الإيروس ليتحول إلى فيليا حينما يكون قدر العطاء متساوٍ مع الأخذ، فالصديق يمكنه أن يتخلى عن راحته من أجل صديقه ولكن على أساس أن هذا الأخير سيتعامل معه بالمثل وقت الحاجة، حتى تضحيات الأم من أجل أبنائها تستهدف إشباع عاطفة الأمومة التي تُولَد بها الأنثى، حتى أن إحدى الدراسات الحديثة تضع احتياج المرأة لممارسة مشاعر الأمومة، على قدم المساواة مع احتياج الرجل ليعرف امرأة ... فهي غريزة، تسعى إليها المرأة وإن تطلَّب ذلك منها بعض التضحيات الجسدية والنفسية والمادية ... هنا وتبقى **الأغابى** وحدها، لتستحق لقب المحبة اللانفعية، التي لا تطلب ما

لنفسها مطلقاً، لأنها تحب حتى الأعداء!! رغم بقاءهم في عداوتهم ...

وتئن البشرية من الشوق لذاك الحب النقي، فيستعير **طاغور** لسانها وينشد قائلاً:

ليس لي ذلك الحب الذي لا يعرف الحدود،
ويعدو مستشرفًا حتفه في لحظة،
كالخمر المزبدة التي تحطِّم آنيتها،
هب لي ذلك الحب النّدي النّقي
كمطرك الذي يبارك الأرض العطشى،
ويملأ جرار البيت الفخارية.
هب لي ذلك الحب الذي يود أن ينفذ
إلى أغوار الوجود،
ثم ينساب من ثمة، نسغًا خفيًا، في أغصان الحياة،
ليبعث الثمار والأزهار.
هب لي ذلك الحب الذي يسربل القلب بالأمن.

ولكن المحبة / الأغابي لا تتحقق إلا برفيقتها الدائمة؛ الحرية، فالحب بلا حرية هو سجن مزيَّن بلا حياة!! لذا فإن أعظم التعريفات الإنسانية رأت في الإنسان، **الكائن الوحيد الحر** ومن حريته يستطيع أن يفكر ويختار ويعمل ويدرك ويسقط ويقوم ويبغض ويحب ... فالحرية هي الرَحِم الذي يخرج منه كل الأعمال الخيِّرة، كما أنها أرضًا قد تنبت زوان الشر!! وحرية الإنسان تبدأ كقوى باطنية في أعماقه، يرصدها بين الحين

والآخر في مواقف تستدعي تلك القوى ويستخدمها إذا لزم الأمر ليؤكِّد على تفرده وخصوصيته التي إن انتُزِعَت منه، فَقَدَ قدرته على الحياة وأصبح وجوده بلا معنى ولا غاية تشحذ قوى النفس لمواجهة الحياة، ثم يتنامَى وعي وإدراك الإنسان لتلك القوة الهائلة التي تشكِّل كل حركة وفكر وفعل في حياة الإنسان، بل أنها تشكِّل مصيره المستقبلي في العالم الآخر، هل سيكون في ملكوت النور أم مملكة الظلمة.

الحرية[٤]

إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتذوق الحرية بل ويعمل من أجلها، فقد قيل:

تاريخ الإنسان الحقيقي هو تاريخ حريته
ويبدأ الإنسان حقًا بالحياة
حينما تبدأ حريته
بأن تحط أقدامها الأولى على الأرض،
وقبل هذه الحقبة،
فالإنسان هو إنسان ما قبل تاريخ الشخص البشري.

لقد رأى الإنسان القديم أن الحرية هي سر الآلهة التي إن اكتشفها البشر، فقدوا السيطرة عليهم!! فها هو أورست *Oreste* في رواية الذباب *Les Mouches* يتحدى جوبتر قائلاً:

---

[٤] لقد تم الاستعانة بالكتاب الثمين للدكتور زكريا إبراهيم (مشكلة الحرية) في عملية البحث عن مفهوم الحرية في فكر الفلاسفة.

- **أورست**: إنك ملك الآلهة يا جوبيتر، ملك الأحجار والنجوم، ملك أمواج البحر ولكنك لست ملكًا على الآدميين.
- **جوبيتر**: ولكن إذا لم أكن أنا ملكًا عليك، فمن الذي خلقك إذًا؟
- **أورست**: أنت خلقتنى ولكن ما كان ينبغي أن تخلقني حرًا!
- **جوبيتر**: إنما وهبتك الحرية لتخدمني!
- **أورست**: هذا جائز ولكن هذه الحرية قد انقلبت عليك ولم يعد في وسعي ولا في وسعك أن نفعل شيئًا.
- **جوبيتر**: أخيرًا، أهذا هو العذر!
- **أورست**: أنا لا أعتذر ... فلست السيد ولا العبد و**إنما أنا حريتي**.

من ذلك الحوار التخيلي ندرك أنَّ الإنسان أصبح يشكل خطرًا على الآلهة لأنه قد صار حرًا ولا يستطيع إلا أن يتبع حريته في الاختيار المصيري الموضوع أمامه والذي من خلاله سيحدد هل سيتبع الآلهة أم لا؟!... ولعل إجابة أورست الأخيرة بأنه ليس السيد ولا العبد، تؤكِّد أن موقف السيد، كما العبد، يبتعد بالإنسان عن الحرية التي ينشدها، حيث يصبح السيد عبدًا لسلطته أو مركزه أو ماله ... مما يفقده أغلى ما يملك ألا وهو الحرية. لذا فكان تعبير أورست الخالد؛ [**إنه الحرية**]، فبدون الحرية لا يصبح للإنسان وجود وإن كان يستمر في الوجود بيولوجيًا!!

ولكن الحرية التي تحدثت عنها الأساطير اليونانية ليست الحرية المطلقة، فقد رأى اليونانيون القدماء أن هناك ضرورتان بمثابة قوى القدر التي تسلب الحرية:

الأولى: الضرورة (القدر) الأعمى الذي يبسط راحتيه على الناس والآلهة، ويخضع له الجميع حتى زيوس كبير الآلهة ...

الثانية: الضرورة (القدر) الذي يتطلبه القانون الأخلاقي، حتى تستقيم مسيرة البشر. وهو قدر واعٍ يهدف إلى وضع قانون للحياة الإنسانية حتى ولو لم يدركه البشر.

وفيما بعد، انقسم الفلاسفة اليونان إلى جبهتين، إحداهما تناصر مبدأ الحرية ولا تؤمن بالقدر وتمثلت في الأبيقوريين، وإن كان تعبيرهم عن الحرية أشبه بالفوضى الأخلاقية. بينما تبنت الجبهة الأخرى مفهوم القدرية (أي سلطة القدر على التصرفات والتوجهات البشرية) وقد سار بهذا المبدأ الرواقيون.

وكثيرًا ما ظهر الإنسان في الفكر اليوناني القديم **كإله لم تكتمل حريته** وكان عليه أن يسعَى بشتَّى الطرق ليحصل على تلك الحرية ليدخل في مجمع الآلهة الأحرار.

ولكن حينما بدأ الوعي الإنساني ينضج في رؤية الله، بدأت الحرية تتخذ تعريفات أخرى في قاموس الإنسان؛ حيث رآها الوجوديون مقترنة بالوجود، فبمجرد قولي [أنا موجود]، هذا يعني بالضرورة [أنا حر] ورآها البعض قوة هدَّامة لأنها كانت فاصلاً مشتركًا في الطغيان والشر والتعدي الإنساني وقد حاول الإنسان في حِقَب مختلفة أن يؤكِّد حريته (المزعومة) بالقضاء

على الآخر سواء كان هذا الآخر، الإنسان أو الطبيعة أو الله (ثالوث الوجود)!!

لقد تكلم **سارتر** على لسان إحدى الشخصيات في روايته *Le Sursis* قائلاً:

إنني لست شيئًا ولست أملك شيئًا
أنا وثيق الصلة بالعالم، كالنور،
ومع ذلك فإنني منفي،
مثلي كمثل النور حين ينزلق على سطح الأحجار
أو فوق صفحة الغدير
في الخارج، في الخارج!
أجل، أنا خارج العالم،
خارج الماضي، خارج ذاتي نفسها،
فالحرية هي المنفَى،
وقد قُضيّ عليَّ بأن أكون حرًا!!

لقد تطرف سارتر ورأى أن الحرية هي مصير سلبي محتوم، تكلم عنها بحس الأسير الحزين الذي قد نال عقوبة، قُدِّر له أن يؤديها خلال فترة تواجده على الأرض!! فهي - في فكر سارتر - نشاط سلبي هدَّام، وقادته تلك الفكرة إلى أن (الهدم) خاصية إنسانية جوهرية، فالإنسان وحده من بين جميع الموجودات يجد لذة كبرى في أن يهدم - أحيانًا - لمجرد الهدم! ويضيف أن البراكين والزلازل والأعاصير والسيول عناصر طبيعية هدَّامة ولكنها ظواهر تجلب الموت والدمار دونما قصد، بينما ينفرد

الإنسان بكونه هو الكائن الذي يؤكِّد حريته بنشاطه الهدَّام وحروبه المدمِرة واختراعاته المُفسِدة، فيقيم الدليل على أن حريته وثيقة الصلة بالشر والموت والعدم والفناء!

فهو الكائن الذي تستهويه حريته، فيظن أنه يملك من القدرة ما يستطيع به أن يقضي على ما خلقه الله نفسه!! وكأنَّ مهمة الله أن يخلق من العدم ومهمته (الإنسان) هو أن يحيل ما خلقه الله إلى عدم!! ولقد جسَّد **نيتشه** هذه الصورة، قائلاً، بلسان حال الإنسان:

لسوف أقتلكم جميعًا

ولن ألبث بعد ذلك أن أمضي أنا أيضًا!! (٥)

ولقد كتب **ديكارت** عبارته الشهيرة: [أنا أفكر فأنا إذن موجود] وكأنه يعرِّف الإنسان بأنه؛ [جوهر مفكر] ولكن **مين دى بيران** *Maine de Biran* رأى أن الإنسان هو [ما يريده وما يختاره وما يفعله] ، فكتب: [أنا أريد/ أنا أفعل، فأنا إذن موجود] وتحوَّل التعريف الإنساني في الأوساط الفلسفية من قالب (التفكير) إلى جانب (التقرير أو العمل) وهذا يعني الانحياز إلى جانب الحرية (كفعل اختيار) في تعريف الإنسان. فالإنسان يستطيع أن يفكِّر في الكثير من الأشياء ولكنه لا يستطيع أن يجسِّدها في ذاته أو في واقعه، ولكن ما يختاره الإنسان

---

[5] G. Gusdorf, *Traité de Métaphysique*, Colin, 1956, p. 442

يتلامس مع ماضيه وحاضره ومستقبله. فعملية الاختيار وإن كانت تتم في الحاضر، إلا أنها تتأثر بما تلقَّاه الإنسان من معارف (موروثة ومكتسبة) من ماضيه، حتى أن أحد الفلاسفة يعرِّف الإنسان بأنه؛ [ما كانه!! *what he was*!!]، أي أن تراكمات الحياة والفكر التي تكونت في الماضي تؤثِّر بالضرورة على لحظة الاختيار في الحاضر، كما أن لحظة الاختيار تشكِّل مستقبل الإنسان فيما بعد، **فالحياة ليست سوى مجموعة اختيارات نقررها بملء إرادتنا لتحدد فيما بعد (من نكون؟)**.

لقد نشأ تيار يرى في الحرية وهم وخداع وأننا لسنا أحرارًا فيما نفعل أو فيما نقول!! بل أننا مجبرون على ما نختاره بحكم طبائعنا وبيئتنا ومحدودية اختياراتنا، بل وعدم قدرتنا على استيعاب ما يؤثِّر في اختياراتنا. وبقلم هؤلاء يكتب **اسبينوزا**:

إن الناس ليخطئون إذ يظنون أنفسهم أحرارًا
ولكن ما منشأ هذا الظن؟
إن مرجعه أن الناس يشعرون بأفعالهم،
وإن كانوا يجهلون العلل التي تدفعهم للعمل!!

هنا يرى أنَّ إحساسنا بالحرية ينشأ من شعورنا بما نفعله، فالقدرة على العمل والقدرة على الاختيار هما سبب حس الإنسان بالحرية ويضيف أننا لسنا أحرارًا لأننا لا نعرف القوى الدافعة (العلة) التي تجعلنا نختار أمرًا ما دون الآخر، أو نعمل

شيئًا ما دون الآخر ... ولكننا يمكننا الرد عليه بأننا حينما نتحرك أو نتكلم أو نؤدي أي عمل، فإننا نشعر بهذا العمل دون أن نفكر في مبعث هذا العمل بيولوجيًا. بمعنى آخر، أننا حينما نتكلم عن شيء ما، لا ندرك ما الذي يحدث من عمليات معقدة داخل عقولنا وما يرسله العقل من إشارات إلى العضلات الفكية لتحرِّك الشفاة على هذا النحو، كما لا ندرك - بيولوجيًا - مايصاحب كلامنا من انفعالات ومشاعر **ولكننا نشعر بها** ... فالمهم أننا قد عبَّرنا عن أفكارنا وبالتالي عن شخصيتنا من خلال كلمات وهذا لا يشترط الوعي بالنظام البيولوجي المعقد. فعدم وعينا بالحركة البيولوجية لا يعني أننا لسنا أحرارًا فيما نقول، **فحرية الفعل شيء والوعي بدافع الفعل شيء آخر.**

وفي محاولة وسطية ظهر **كانت** *Kant* ليقول:

إننا أحرار ومجبرون معًا،
فنحن أحرار إذا نظرنا إلى ذاتنا العالية على الزمان،
ونحن مجبرون إذا نظرنا إلى أفعالنا
التي تتحقق في الزمان.

ولعل المفهوم الذي جاء به **كانت**، قسَّم الإنسان إلى ذات وفعل، أو بمعنَى آخر، شخص وسلوك. فالذات أو الشخص هي الجزء الأعمق في الإنسان الذي يحوي شيئًا ما يجعله يستشعر أنه فوق المادة وفوق الطبيعة وفوق الضرورة ولكنه حينما يخرج

إلى الواقع يجد أنه محاط بكَم هائل من القوانين الطبيعية التي تحد من حريته و تمتص قدراته، كما يجد تنوع كبير في الطبائع والسلوكيات بين البشر مما يجعله يخضع لقانون هذا البيت الكبير الذي يسكنه مع باقي الخليقة. ولكن يبقى هذا الشعور بالتميز والارتفاع الشخصي هو جوهرته الثمينة التي يتوقف عندها بين الحين والآخر ليجد الدافع الكافي ليعمل ويفكر ويبتكر ويبدع في الحياة، في بحث دؤوب عما يحقق له ما يجده في ذاته العميقة من سمو وهذا هو أقرب مفهوم للمسيحية.

لقد احتار الفلاسفة في محاولة تعريف الحرية من حيث كونها حالة *state* أم فعل *action*؟ فإن كانت **حالة**،أصبح يعني هذا أن الحرية تولد بميلاد الإنسان ولا يمكن فقدانها، رغم أن كل الظواهر تؤكِّد أن الحرية كثيرًا ما تغيب عن واقع الإنسان، بل وتصبح أحيانًا حلم يداعب خياله ويتمنى تحقيقه ...

وإن كانت **فعل**، فإن هذا يعني أنها شيء مكتسب وليست أصيلة في وجدان الإنسان، رغم أن كل الظواهر أيضًا تؤكد أن هناك حالة من الشوق للتحرر وهي تشكل المحرك الأول والدافع الأقوى في أي عمل يعمله الإنسان. وأصبح هناك فريقين لكل منهما معطياته ومآخذه في تعريف الحرية وبالتالي تعريف الإنسان الحر. ولعل هذا الاختلاف في تعريف الحرية يرجع إلى

أنها ليست شيئًا محسوسًا ماديًّا نلمسه ونحدده ونعرِّفه ولكنها شيئًا نشعر به حاضرًا بقوة وكثافة في كل حركة نتحركها وكل نسمة نتنسمها وكل خفقة يخفق بها قلبنا ...

حاول أن تثبت حرية الإنسان
فستجد أنك لن تستطيع أن تؤمن بوجودها
ولكن ضع يدك على قلبك،
فتجد عندئذ أنك لن تستطيع أن تشك
في وجودها[٦]

ويرسو بنا الفيلسوف **ليبنز** على شاطِئ الحقيقة بعد أن تقاذفتنا أمواج الفكر بين الفلاسفة الذين أرادوا أن يُخرِجوا الله من معادلة الحرية وبالتالي من مفهوم الإنسان ككائن حر، ومدى حدود حريته، فيكتب قائلاً:

إن الله وحده هو الكائن الوحيد الحر
بأكمل معاني الحرية،
وأما الموجودات المخلوقة،
فهي ليست حرة،
إلا بقدر ما تسمو بنفسها فوق الأهواء.

وكأننا هنا نستمع لحكمة غالية ينطق بها أب من آباء البرية الكبار، ولكنها تأتينا من وسط خضَم الفكر الفلسفي الحائر وهذا ما يعطيها قيمة كبيرة؛ أنَّ العالم نفسه يشهد بعد

---

[6] Mme de Steal, *De l'Allemagne*, t. 3, p.57

أن خارت قواه، أن الله وحده يملك الحرية المطلقة وأن حرية الإنسان نسبية، تستمد وجودها وقيمتها من الإتصال بالله، **فهي حرية مخلوقة نسبية جزئية في قلب الإنسان، تحمل ظلال صورة حرية الله المطلقة** والفارق بينهما هو الفارق بين الأصل والصورة، بين النبع والنهر، بين الله والإنسان المخلوق على صورة الله.

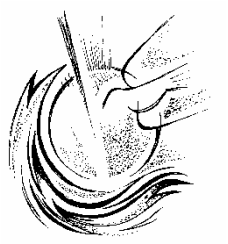

الفصل الثاني

بذرة إلهية في أعماق الإنسان

اشتركت في الصورة ولم أصنها
فاشترك في جسدي لكي يخلِّص الصورة

القديس غريغوريوس النزينزي

لأننا تشكلنا من جديد حسب الصورة الأولى
إذ خُتِمنَا بختم الابن

القديس كيرلس الكبير

لقد كانت خِلقة البشرية فريدة بين كل خليقة الله، فالله قد خلق كل شيء بالكلمة، حينما قال: ليكن نور ... وليكن جَلَد ... ولتجتمع المياه ... ولتنبت الأرض عشبًا ... ولتكن أنوار في جَلَد السماء ... ولتفِض المياه زحافات ... ولتُخرِج الأرض ذوات أنفس حية ... وحينما أراد أن يخلق الإنسان، لم تكن الكلمة وحدها هي أداة خلق آدم وبنيه؛ "وقال الله: **نعمل**[٧] الإنسان على صورتنا كشبهنا" (تك ١: ٢٦) والكلمة المستخدمة في العبرية هي נַעֲשֶׂה (نَ ع سِ ه*silent*) والتي تشير إلى الصنع أو العمل. كما نجد أن الترجمة السبعينية حافظت على نفس المعنى حينما استخدمت كلمة ποιήσωμεν.

فالإنسان هو نتاج فعل أو عمل الله *an action of God* ويستخدم القديس **غريغوريوس** كلمة (صنع *made*) في

---

[٧] تروي الأسطورة اليهودية، أنَّ الله حينما أراد خلق الإنسان، اتخذ من الملائكة المحيطين بالعرش مجلساً له، وبادره ملاك العدل قائلاً: لا تخلق الإنسان، لأنه سوف يرتكب الكثير من الشرور ضد رفيقه الإنسان. وسوف يكون قاسياً وحادًا، ولن يكون مخلصاً ولا مستقيماً. وقال ملاك الحق: لا تخلقه، لأنه سوف يكون خاطئاً ومخادعاً لأخيه الإنسان، بل ولك أنت أيضًا. وقال ملاك القداسة: لا تخلقه، لأنه سوف يتدنس أمامك مستهيناً بك. ثم تقدم ملاك الرحمة (الملاك المحبوب من الله) وقال: اخلقه أيها الآب السماوي، وحينما تستميله الخطيئة عن طريق الحق والاستقامة والقداسة، سوف آخذ بيده بحنو، وسوف أداعبه بكلمات المحبة، وسوف أعود به إليك دفعةً أخرى.
Tan, P. L. Encyclopedia of 7700 illustrations: *A treasury of illustrations, anecdotes, facts and quotations for pastors, teachers and Christian workers*, 1935, *create him*. Bible Communications: Garland TX

معرض حديثه عن خلقة الإنسان فيقول؛ [وصنع ـ الله ـ بيديه غير المائتتين، صورتنا وبث فيها الحياة].

ويرى القديس **ايريناوس** أن هذا الفعل الإلهي تم بيديَّ الله اللذين هما؛ الكلمة والروح، في مقابل الكلمة فقط في خلقة باقي الكون. [٨]

وعن هذه الخِلقة أيضًا، يتحدث القديس **كيرلس الكبير** قائلاً:

وهكذا صاغ (الله) صورةً تحمل مجده وكرامته ...
وفي الحال، طبع (الله) عليه
الروح المحيي الواهب لعدم الفساد ...
وهكذا كان الإنسان هو التعبير والطابع المعبِّر
للمجد الأسنى،
وأيقونة السلطة الإلهية على الأرض [٩].

تشكيل الإنسان

يشرح لنا الإصحاح الثاني من سفر التكوين عملية الخلق، إذ يقول: "وجبل الرب الإله، آدم، ترابًا من الأرض ..." (تك٢ :٧). والكلمة المستخدمة في اللغة العبرية וייצר من الفعل יָצַר (يَ تصَ ر) والتي تُرجِمَت في العربية (جَبَل)، تُلقي بالضوء على المعنَى.

---

[8] Contra Heareses, 4, *praefatio*, 4,P.G. t. 7.col

[٩] شرح سفر التكــوين سفر البدايـــات، أحد رهبان دير القديـــس أنبا مقـــار، إصحاح ١ ص٧١

فالكلمة قد تُرجمت في معظم الترجمات الإنجليزية *Formed* والتي تعني صاغ أو شكَّل وقد ورد هذا الفعل في قاموس BDB[10] أنه فعل خاص بالخزَّاف *Potter* أو النحَّات الذي يحفر على الخشب *carver of wood* وقد انتقت الترجمة السبعينية بعناية الكلمة التي ترجمت بها هذا الفعل الهام، فاستخدمت كلمة ἔπλασϵ وهي الكلمة التي استخدمها أدباء اليونان قديمًا لوصف الفنان الذي يستخدم الطين أو الشمع في إنتاجه الفني[11]... ولعل تلك الدلالات اللغوية تقودنا إلى رؤية خاصة لخِلقة الإنسان ومن ثم للعلاقة بين اللّه والإنسان من جهة، واللّه والخليقة، من خلال الإنسان، من جهة أخرى.

فالإنسان هو الخاتم الذي ختم به اللّه الخليقة، لأنه من لحظة خلق الإنسان، أصبح مفوَّضًا من قِبَل اللّه لتولي شئون الخليقة وأصبح هو همزة الوصل بين اللّه والخليقة، لأن الإنسان هو نتاج نسمة الألوهة المحيية ومادة الأرض الساكنة، كما أصبح الإنسان هو شفيع الخليقة غير العاقلة أمام اللّه.

وكانت الوسيلة الوحيدة التي يضمن بها اللّه أن يظل إدراك الإنسان يقظًا لوجوده، هو أن يصوغ الإنسان على الصورة والمثال الإلهي، فكان فعل الخِلقة بمثابة رداء، يحمل خيطًا إلهيًا، نَسج منه اللّه وجود الإنسان. لذا فالبحث عن اللّه يكون في أعماق

---

[10] Brown, F., Driver, S. R., & Briggs, C. A. 2000. *Enhanced Brown-Driver-Briggs Hebrew and English Lexicon* (electronic ed.).
[11] Liddell – Scott Lexicon, πλάσσω

الإنسان السحيقة (كما أكَّد القديس أغسطينوس) لاكتشاف هذا الخيط الملوكي الذي يربطنا بالله. وعن هذا يكتب القديس **أثناسيوس**:

ولأنه (الله) رأى عدم قدرة الإنسان
أن يبقَى دائمًا على الحالة التي خُلِق فيها،
أعطاه نعمة إضافية،
فلم يكتفِ بخلق البشر
مثل باقي الكائنات غير العاقلة على الأرض،
بل خلقهم على صورته،
وأعطاهم شركة في قوة كلمته،
حتى يستطيعوا وبطريقة ما،
ولهم بعض من ظل الكلمة، وقد صاروا عقلاء،
أن يبقوا في سعادة ويحيوا الحياة الحقيقية،
حياة القديسين في الفردوس. [١٢]

السقوط

إلا أن الإنسان رفض أن يصبح صورة الله وأراد أن يصبح [صورة نفسه] بتعبير الأب صفرونيوس، فلم يُرجِع الامكانيات الهائلة التي وضعها الله فيه إلى مصدرها (الله)، ولكنه أراد أن يصبح ذاتي العمل والفكر والإرادة، متوهمًا أن الله هو مرحلة

[١٢] تجسد الكلمة، القديس أثناسيوس الرسولي، ف ٣، ص ٨ ، ترجمة الدكتور جوزيف موريس، مؤسسة القديس أنطونيوس

مؤقتة في مسيرة الإنسان، يتوقف دوره عند الخلق!! وقد اعتقد الإنسان في إرهاصات فكره الأولى، أن الله ما هو إلا مخلوق صار إلهًا في صراع السلطة على عرش سيادة الكون، وبالتالي فإن الإنسان يمكنه - بحسب تخيله الساذج - أن يدخل في الصراع ويربح ويصير إلهًا ذاتيًا!! حتى أنه تخيل الشجرة التي في وسط الفردوس، أنها مصدر ألوهة الله، لذا فهو (الله) يخشى من الإنسان لئلا يأكل منها فينافسه على صولجان الألوهة المطلقة على مملكة الكون المتسعة الأرجاء!!

فكان السقوط ... واكتشف الإنسان محدوديته المتناهية في مقابل أزلية الله غير المتناهية ... فتساقطت أولى العبرات من عيني آدم، على وهم ألوهة كاذبة، أفقده مجد إنساني عظيم، مُدرِكًا لأول مرة الفرق بين الينبوع الحي الدائم الجريان والتدفق وقطرة المياه الصغيرة السابحة وسط ملايين القطرات الأخرى التي تدين بفضل حركتها للنبع المتجدد.

وعن هذا التعدي، يكتب لنا **الأب صفرونيوس** في مئويته الأولى، قائلاً:

إن تعدي الإنسان الأول حوَّله من كائن حسب الله،
أي حسب صورة الله،
التي تأخذ كيانها وحريتها كلها من الله،
إلى كائن حسب الذات الإنسانية
التي خُلِقت من العدم،

والتي لا يوجد فيها ينبوع حياة [١٣]

ويضيف أن هذا السقوط كان يكمن في:

طلب القوة التي لا تعرف المحبة،
ولا يحرِّكها التواضع،
أي ذات حياة الشيطان،
الذي ماتت حياته،
عندما أراد أن يصير مثل الله بدون الله!! [١٤]

فاللّه هو قوة حب خيِّرة بسيطة وليس قوة سيادة عمياء وهذا ما لم يره الإنسان! حينما بهرته السيادة المطلقة والقوة غير المحدودة ولم يتعرف على جوهر اللّه القائم على الحب النقي. فلو كان الإنسان أدرك حب اللّه، لما طلب ألوهة القوة، بل اشتهي أن يظل طفلاً صغيرًا يرضع لبن الحب الأبوي الذي كان يملأ به اللّه فردوس الحب الذي شكلته يده الحانية خصيصًا من أجل الإنسان، ليسكن فيه ويهنأ به إلى الأبد.

---

[١٣] مائة مقولة عن التوبة وعمل الروح القدس في القلب، رسالة الأب صفرونيوس إلى تلميذه ثيؤذوروس (المئوية الأولى في التوبة) ص ٤٤

[١٤] مائة مقولة عن التوبة وعمل الروح القدس في القلب، رسالة الأب صفرونيوس إلى تلميذه ثيؤذوروس (المئوية الأولى في التوبة) ص ٩

ولأن الإنسان مخلوق على الصورة الإلهية، نرى أن هناك تحرُّك داخلي وحنين إلى ما هو أبعد من التراب ومن هو أسمى من المادة. فمن ذلك المزيج الذي تشكَّل منه الإنسان؛ التراب والروح، تولَّد الشوق نحو الأصل. وهذا الشوق بمثابة الفعل الأصيل في كيان الإنسان. كما تولَّد أيضًا النزاع المادي الدائرة أحداثه في فَلَك الجسد، كرد فعل معاكس للنزوع الإنساني الأصيل. ولقد عبَّر القديس **غريغوريوس النزينزي** عن هذا الصراع الدائر (في الكون الصغير *microcosmos*) الذي هو الإنسان، قائلاً:

... وهكذا خُلِق الإنسان من الغبار ومن النفحة ...
لهذا السبب، لكوني ترابًا أتعلق بحياة هذا الدهر،
ولكن لكوني أيضًا قطعة إلهية،
أحمل فيَّ رغبة الحياة العتيدة ... (١٥)

وتمخَّض هذا الصراع عن تساؤل حائر في قلب الإنسان؛ هل نحن أصل إلهي به لمسة من التراب؟ أم أننا قالب ترابي به لمحة من ذات الله العلوية؟؟

فقد كتب أحدهم قائلاً:

أيها العطشان، هل تدري أن الينبوع موجود؟

---

[15] Poemata Dogmatica, vol. 8, *On the Soul*, vv. 70-75

عد إلى نفسك وأحفر بئرك،
هناك ستسمع سقسقة المياه ...
سيشع النور من أعماق البئر ...
اترك الموجة الطليقة تنساب قوية
إلى بساتين جيرانك،
ابذل ذاتك لغيرك،
حينها سيشع نور الهدف الأعلى في قلبك [١٦]

فالإنسان يستطيع أن يتعرف بوضوح على عنصره الترابي؛ في الجسد، في الشهوات، في الغرائز ... إلا أن قليلين هم الذين يستطيعون أن يتوقفوا أمام نسمة الألوهة المتحرِّكة في الكيان الإنساني الأعمق، ذلك الينبوع الممتلِئ بالمياه الحيَّة. ويمكننا القول بأن البحث عن الله في إنساننا الداخلي يحتاج لعمل دؤوب واختراق لبقعة التراب التي تغلِّف أرواحنا حتى نلمس ذاك النور الكامن في أعماقنا والذي تحدث عنه القديس **غريغوريوس النزينزي**، قائلاً:

النفس نفحة من الله،
ولئن كانت سماوية، إلا أنها تختلط بالتراب،
إنها كنور أُغلِق عليه في مغارة،
ولكنه لا يكف عن كونه نورًا إلهيًا لايُطفَأ. [١٧]

---

[١٦] شبيبة متمردة، أ.غالندو ــ ف. دونير، دار المشرق

[17] Poemata Dogmatica, vol. 8, *On the Soul*, vv. 70-75

إن صورة الله في الإنسان ليست صورة ساكنة قد خُلِقنا على نسقها وانتهى الأمر ولكنها صورة تحمل طبيعة حركية *dynamic* تقودنا باطنيًا نحو الله وهذه الصورة لها أوجه عِدَّة في حياة الإنسان. فنحن مخلوقون على صورة الله في القدرة على الحب المجاني وفي حرية اختيار المسيرة وفي إمكانية التعرُّف على الله باعتباره أصل الحياة، بل وفي إمكانية إقامة شركة معه، تنمو حتى تصل إلى حالة من الإتحاد حينما نخلع مسكننا الأرضي ونلبس السمائي.

إن كان سفر التكوين يخبرنا أن هناك صورة أصيلة، هي الأعمق، التي هي صورة الله فينا، نجد أن القديس بولس يحذرنا من صورة أخرى لها مكان في طبيعتنا، ألا وهي صورة التراب "وكما لبسنا صورة الترابي، سنلبس أيضًا صورة السماوي" (١ كو ١٥ : ٤٩). إنها الوجه الآخر للعملة التي تشكَّلت منها بشريتنا. ولعل تلك الإشارة التي أوردها القديس بولس عن الجانب الأرضي (الترابي) الذي هو عنصر أساسي من طبيعتنا البشرية، قد استخدم فيها نفس الكلمة التي استخدمها حينما تكلَّم عن البُعد الإلهي (السمائي)، وهي أيضًا الكلمة التي استخدمتها الترجمة السبعينية في التعبير عن صورة الله التي وردت في سفر التكوين (١ : ٢٦) وهي εἰκόνα من εἰκών والتي

تترجم في الإنجليزية بنفس الكلمة *icon* كما نترجمها في العربية أيضًا (أيقونة). وقد وردت تلك الكلمة في كتابات أفلاطون بمعنى (النظر في مرآة)[١٨] وهذا يأخذنا مباشرة لكلمات القديس بولس، إذ يقول: "ونحن جميعًا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف، **كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عينها**، من مجدٍ إلى مجدٍ، كما من الرب الروح" (٢ كو ٣ : ١٨).

من هنا يمكننا إدراك وجود أيقونتين تشكلان الإنسان بكل أبعاده، وهما:

الأيقونة الأولى هي أيقونة الله فينا، التي من خلال النظر إليها يمكننا التعرُّف على الله والوصول إليه، وهو ما كان يبحث فيه القديس أغسطينوس، الذي أراد أن يصل إلى الله انطلاقًا من الإنسان، أي انطلاقًا من الأيقونة الإلهية التي نقشتها يد الله فينا حينما تقبَّلنا منه نسمة الحياة.

الأيقونة الثانية هي أيقونة العالم المادي، أيقونة الطبيعة المخلوقة، أيقونة التراب الذي منه، شكَّل الله، الإنسان ...

ولكن الأيقونة الإلهية قد رسمها الله فينا بالروح، لذا لا يمكن أن نستحضر تلك الأيقونة التي فينا ونتمتع بجمالها إلا حينما نسلك بالروح ونحيا بالروح. فالروح الإنساني هو المكوِّن الوحيد من بين مكونات الإنسان الذي يستطيع، بما له من

---

[18] Liddell – Scott Lexicon, εἰκών

إمكانات، أن يتعرف على تلك الصورة، بل ويسعَى ليصبغ الأيقونة الترابية بمسحة خاصة يستمدها من الفن الإلهي في أيقونة السماء ... وهذا ما كان يعنيه المسيح في حديثه مع السامرية بجانب البئر، حينما قال لها: "اللّه روح، والذين يسجدون له، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" (يو ٤ :٢٤). وهنا يعلن المسيح عن طبيعة اللّه الروحية غير المتكثفة في المادة وأن بدء العبادة التي بالحق هي الرجوع إلى الروح وتحركه فينا. وروح اللّه الساكن فينا سيزيل التراب عن الأيقونة الإلهية، حتى يستطيع الإنسان أن يدركها، ومن خلالها يدرك أصله العظيم، ومن خلالها أيضًا يدرك اللّه. وإدراك اللّه يكون بمثابة السجدة الأولى للإنسان بالروح والحق ويكون ما قبلها مجرد تلامس للتراب مع التراب، دون ركوع حقيقي لروح الإنسان أمام أيقونة اللّه التي تحتل قدس أقداسنا؛ القلب.

فالإنسان حينما يقف بشوق وحب وخشوع العبادة أمام الأيقونة الإلهية التي فيه (يدخل إلى ذاته الحقيقية)، تحدث داخله حركة، يستشعر بتغيير يجري في أعماق أعماقه ويلقي هذا التغيير بظلاله على كل ما في الإنسان، فيجعله ينسلخ من حدود المادة التي تقيِّده ويرى ببصيرته الروحية أن هذه القطعة الترابية التي يسكنها ليست سوى جليد يذوب أمام دفء حضور اللّه الذي يسمو بالمادة إلى الروح ويطوِّع المادة لخدمة الروح، بل ويستخدم المادة لانطلاق الروح ...

فالأعضاء الجسدية تتحول إلى آلات بر تعمل من أجل ملكوت الله الحال فينا؛ فالأرجل التي كانت بالأمس تلامس التراب تصبح أرجل الروح التي تسعَى من أجل نشر الحب ومن أجل الاشتراك الفعَّال في الجسد الروحي الواحد الذي هو الكنيسة، تسير مسافات لتبحث عن مريض لتحمل له دواء الله، تبحث عن فقير لتحمل له غنَى الله، تبحث عن مظلوم لتحمل له حق وعدل الله، تبحث عن مُعاق أو مشَّوه لتحمل له جمال الله، تبحث عن مهمَّش لتأخذه إلى حضن الله، تبحث عن تائه لتقوده إلى طريق الله، تبحث عن الغريب لتدخله إلى بيت الله، ليصير من أهل هذا البيت ... تبحث وتبحث ... وهي تعمل للروح لا للجسد، تعمل للأبدية لا للزمان الحاضر الذي يحتضر في تحركه نحو اللازمان، تعمل لتُحقِّق هذه الأيقونة الإلهية المنطبعة في الوجدان، لا لتحقيق أيقونة التراب الزائلة ...

لذا فإن أيقونة الله التي فينا تتطلب منا حركة دائمة وسعيًا دؤوبًا للملكوت، من أجل تحقيق الغاية التي من أجلها أتينا إلى العالم ... هنا ويخاطب القديس **غريغوريوس النزينزي** نفسه، في عتاب من رأى صورة الله في ذاته ومالَ لصورة العالم والتراب، قائلاً:

لماذا أنتِ مضطربة بهذا القدر من إغراء العدو
فيما أنتِ متصلة بالروح السماوي؟
إن كنتِ، رغم مساعدة قدر هذه، تميلين نحو التراب

نتغيَّر ونتجدَّد

يستخدم القديس بولس، في رسالته الثانية إلى كورنثوس، تعبيرًا خاصًا جدًا، إذ يقول: "**نتغير إلى تلك الصورة** عينها" (٢ كو ٣ : ١٨)، كما يتحدث في رسالته إلى أهل كولوسي عن لبس الإنسان الجديد الذي "**يتجدد للمعرفة** حسب **صورة خالقه**" (كو ٣ : ١٠). إنَّ التعبيرين المستخدمين (نتغير / يتجدد)، يحملان طابع الحركة الفعَّالة، أو ديناميكية الحياة مع الله ...

✣ وردت الكلمة الأولى (نتغير) في النص اليوناني μεταμορφούμεθα والتي جاء معناها في القواميس المختلفة في إطار التحوُّل *transformation* أو التجلي *transfiguration* وهذا يعني أنَّ عملية التغيير التي يجريها الروح فينا لنكون على صورة الله، هي تجلٍ للصورة التي فينا بالفعل. فالمسيح حينما تجلَّى على جبل طابور لم يستدع قوة إلهية خارجة عنه ليظهر في تلك الهيئة المغمورة في النور الإلهي، ولكنه أعلن عن طبيعته كإله؛ تلك الطبيعة التي لم تفارقه [لحظة واحدة ولا طرفة عين] كما نُنشِد في القداس الإلهي. فالتجلِّي هو بمثابة انجلاء

[19] Poemata Moratia, *On the Human Nature*, vv. 76 – 84

للشكل الظاهر في الجسد ليظهر المسيح الإله المولود من الآب قبل كل الدهور، كإله حقيقي في أعين البشر المنفتحة ...

والإنسان أيضًا يحمل في داخله الصورة الإلهية، ولكن تلك الصورة تحتجب عن بصيرة الإنسان بقدر ما يبتعد عن ناموس المحبة الإلهي. ولكن بمجرد أن يستوقف الإنسان ذاته ويبدأ في شحذ قواه ليتوب ويرجع عن الطرق المعوجَّة، يبدأ الروح القدس في تكسير كل الحواجز والسدود التي تمنع هذا المصباح المضيء المستقر في القلب من الإنارة، ويبدأ النور يشع من داخل الإنسان، ويظهر للآخرين وكأنَّ الإنسان تغيَّر، ولكن الحقيقة أنَّ ما يحدث هو بمثابة **تحقيق للإنسان بالرجوع إلى حالته الأولى**، أي أن الإنسان عاد مرة أخرى إلى إنسانيته، وما قبل ذلك كان هو التغيُّر الذي كان يعمل الروح على إصلاحه.

ويمكن تشبيه هذا الأمر بمرض أصاب الإنسان نتيجة تغيُّر في شفرة الجينات (طفرة جينية *genetic mutation*)، نتج عنه تشوُّه ... إلا أن هذا التشوُّه قد انتقل وراثيًا للأولاد والأحفاد، فأصبح هذا التشوُّه في نظر الجميع بمثابة الشكل الأصلي!! ولكن حدث أن تمكَّن أحد الأطباء من اكتشاف مادة مُشِعَّة يمكن من خلالها أن يعيد الشفرة الوراثية إلى أصلها قبل التشوُّه وكان نتيجة هذا الأمر عودة الجمال والبهاء للنسل مرة أخرى، ففرح الجميع بهذا العمل باعتباره تغيير للأفضل في حياة النسل، دون أن يدركوا أن ما حدث ما هو إلا إزالة الخلل في

الشفرة الجينية لتعود لترتيبها الأصلي. وهذا بالضبط ما حدث في الطبيعة البشرية، حينما تشوهت بالسقوط واعتادت البشرية على طابعها الجديد (الميل للتراب وما يتصل به)، حتى أنها حسبته هو أصلها. ولكن بتجسد الكلمة، أعاد للطبيعة جمالها المفقود (أيقونة الله الرائعة الكامنة فيها) وأصبح عمل الروح هو توجيه البصيرة الإنسانية إلى الأصل الحقيقي المختبئ وليس الشكل الظاهر الزائف.

✣ الكلمة الثانية (**يتجدد**)، وقد وردت في النص اليوناني ἀνακαινούμενον من الفعل ἀνακαινόω وبالرجوع إلى قاموس *Friberg*[٢٠] نجد أنَّ معنَى الكلمة هو؛ يجدِّد *renew* أو يستعيد *restore* وهذا يعطينا نظرة أعمق لهذا الأمر. فتجدُّد الإنسان ما هو إلا استعادة لحالته الأولى، أي أنَّ الأيقونة الإلهية التي فيه هي التي تحتاج أن تُعاد إلى حالتها ووضعها ومكانتها الأصلية. ويرى القديس **اغسطينوس** أنَّ روح النعمة هي التي تعمل على [استعادة صورة الله فينا *to restore in us the image of god* والتي خُلِقنا على مثالها].[٢١]

---

[20] Friberg, B., Friberg, T., Aland, K., & Institute for New Testament Textual Research (U.S.). 2001. Vol.1: *Analytical Greek New Testamen*t: Greek text analysis. Baker's Greek New Testament library.

[21] Migne P.L. 44,p. 201

وهكذا يتلخص عمل المسيح في العودة بالطبيعة البشرية مرة أخرى إلى الأصل الإلهي، فتسترد بهاءها المفقود. وتلك العملية هي عملية انطلاق إلى الخلف، نحو الحالة الأولى. فتجدُّد الإنسان ليس معطىً جديدًا يدخل إلى كيان الإنسان ولكنه إحياء لإنسانية إنسان ما قبل السقوط وما قبل التعدي. ولعلنا نندهش حينما ندرك أنَّ الصورة التي أراد الله أن يخلقنا عليها هي صورة المسيح؛ الكلمة الذاتى. فهو صورة الله غير المنظور (كو ١ : ١٥)، (في ٢ : ٦)، (٢كو ٤ : ٤) وأن عمل الروح فينا هو أن يجعلنا مشابهين لصورة الابن!! "لأن الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم، **ليكونوا مشابهين صورة ابنه** (أيقونة ابنه) τῆς εἰκόνος τοῦ υἱοῦ αὐτοῦ ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين" (رو ٨ : ٢٩) وعن هذا يكتب القديس **أثناسيوس** في كتابه تجسد الكلمة (فصل ١٣/ فقرة ٧):

ماذا يمكن أن يتم سوى تجديد الخليقة
التي وُجِدَت على صورة الله؟...
... كيف كان ممكنًا لهذا الأمر أن يحدث
إلا بحضور نفس صورة الله،
مخلصنا يسوع المسيح؟!
... لهذا أتى كلمة الله بذاته،
لكي يستطيع - وهو صورة الله -
أن يجدِّد خلقة الإنسان

ويضيف القديس **أثناسيوس** في رسالته إلى الوثنيين، قائلاً:

حينما تلقي النفس خارجًا
كل قذارة الخَطيئة، التي تغطيها،
وتحتفظ فقط بما هو مطابق للصورة،
ستصبح حينها مضيئة،
وتستطيع أن تنظر، كما في مرآة،
الكلمة، الذي هو صورة الآب،
ومن خلاله (الكلمة) تستطيع أن تدرك الآب،
الذي على صورته، المخلِّص.[٢٢]

لقد كان مجيء اللّه في المسيح إلى أرضنا وتجسده في شكل العبد وتخفِّيه في ملامح التراب الأرضي، يهدف إلى شيء واحد؛ هو الخلاص، الذي يعني توقُّف سلطان ثلاثي الهلاك المحيط بالطبيعة البشرية (الخطيئة والموت والشيطان). وكان السبيل الأوحد لذلك هو أن يأخذ ما للبشرية (صورة الترابي) ليعطيها ما للروح (صورة السماوي) وهذا لن يحدث إلا حينما يأخذ العجينة البشرية[٢٣] كلها في ذاته، ليعيد إليها صورتها وتألقها المفقود. يعيدها إلى الصورة البهية التي وُجِدَت عليها يوم خلقتها.

---

[22] The Faith of the early fathers, vol. 1, p.320

[٢٣] كل عجينة البشرية أعطتها (العذراء) بالكمال، لله الخالق، وكلمة الآب (ثيؤتوكية الخميس ٦ – ٢)

إنَّ المسيح وحده هو القادر أن يقوم بهذا العمل، لأنه وحده صورة الله وهو وحده الكائن في حضن الآب أزليًا والمخبِّر عن الآب في قلوب البشر، فقط حينما تدخل تلك القلوب في شركة معه بالروح القدس.

وتلك الشركة مع المسيح التي تهدف أن نكون مشابهين لصورة الابن / صورة الله، أو إلى تصوُّر المسيح فينا، بحسب كلمات بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطيه (٤ : ١٩)، ليست عملية لحظية تتم بالإيمان بالمسيح ولكنها عملية تمتد بطول الحياة بل وتمتد في الأبدية. **فالبشرية يجب أن تُبقي عينيها نحو المسيح على الدوام، حتى لا تتوه في قفار العالم التي ترسم صورة زائفة ومشوَّهة ومغلوطة عن الله ويجب أن تدرك أن المسيح هو الأصل للبشرية** *prototype* **وهو أيضًا المثال** *archetype* **الذي يجب عليها أن ترجوه دائمًا أبدًا. فمن خلاله ستتحقق الغاية من تلك الكلمات التي أطلقها الآب كطاقة حياة؛ أن نكون (نصير) على مثاله.**

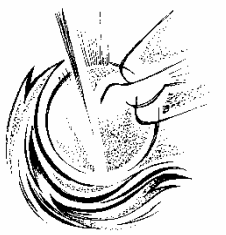

الفصل الثالث

الله والإنسان في المسيح يسوع

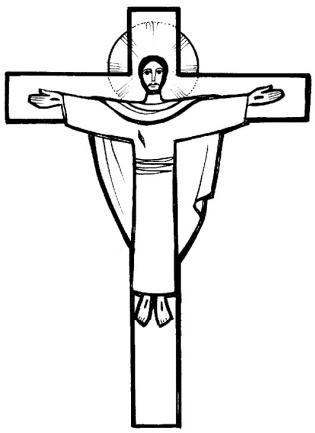

ضع في اعتبارك أن ليل الخطيئة الرديء
لم يعد قادرًا اليوم على المضي قُدمًا
ذلك بعد أن بلغ مداه في الاتساع
ووصل إلى أقصى درجات الشر،
من خلال ابتداع جميع أنواع الشرور
التي ستضطر من الآن فصاعدًا،
إلى الانكماش والاختفاء

القديس غريغوريوس النيصي

وقد جاء المسيح لكي يوحِّد الطبيعة البشرية
بروحه الخاص، أي روح الله
وهو قد أتى لكي يصنع عقلاً جديدًا،
ونفسًا جديدة وعيونًا جديدة
وآذانًا جديدة ولسانًا جديدًا روحيًا
وبالاختصار أُناسًا جددًا كلية
هذا هو ما جاء لكي يعمله
في أولئك الذين يؤمنون به.
إنه يصيِّرهم أواني جديدة،
إذ يمسحهم بنور معرفته الإلهي
لكي يصب فيهم الخمر الجديد

القديس مكاريوس الكبير

في البدء

"في البدء كان الكلمة" (يو ١ : ١). بهذه الكلمات يستهل القديس يوحنا إنجيله. وهو يحاكي بها سفر التكوين في بدايته التي يقول فيها: "في البدء خلق الله السماء والأرض" (تك ١ : ١). إن الكلمة واحدة في الآيتين (في البدء Ἐν ἀρχῇ) ولكن الفارق بينهما كبير؛ فالألفاظ ستظل محدودة وقاصرة في التعبير عن الله وستظل أشواق معارفنا أكبر من كلماتنا وصياغاتنا. وستظل هناك فجوة لا يمكن تخطيها بين إعلان السر في قالب الكلمة وبين السر نفسه الذي يُستعلَن - بشكل شخصي - بالروح العامل في أعماق الإنسان.

إنَّ البدء في سفر التكوين هو بدء الزمن وبدء الخليقة وبدء الحياة المادية، بينما البدء عند القديس يوحنا هو البدء الأزلي، قبل أن يرسل فجر الزمن أشعته على الحياة. هو البدء الذي قبل كل بدء. إنه البدء الذي ليس به نقطة انطلاق، فهو بدء يذوب في الأزلية ولا يمكن إدراكه ولا يمكن حصره ولا يمكن رصد حدوده. هناك في أعماق الأزل كانت ولادة الابن من الآب.

إنَّ تلك الولادة الأزلية، في ذلك البدء الأزلي، كانت سابقة للزمن، لذا فهي بالتالي لا تخضع لقوانين الولادة الزمنية ولا تنحصر في أيام وشهور وسنين. من هنا كان تأكيد الكنيسة

الراسخ عبر العصور أنه ليس هناك أي فرق بين الآب والابن، كما توهَّم أريوس، لأن الفروقات هي نتائج الزمن حينما تتوحد الكينونة وحينما يتلاشى الزمن تتلاشى بالضرورة الفروقات. ولأن الإنسان مولود في كفن الزمن يحيا بين أنسجته المتشابكة، لا يمكنه أن يدرك تلاشي الزمن في الألوهة وبالتالي كثيرًا ما يسقط في فخ الفصل بين الآب والابن. فالحياة التي نحياها هي محصلة تراكمات زمنية؛ فالعمر هو تراكم زمني والخبرة هي تراكم زمني (حينما نثبِّت المعارف) والحكمة هي تراكم زمني (حينما نثبِّت العقل والوعي) والنمو هو تراكم زمني والموت هو ضرورة زمنية ...

يبدأ القديس يوحنا رسالته الأولى أيضًا بالبدء، فيقول:

" الذي كان من البدء ἀπ’ ἀρχῆς
الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا
الذي شاهدناه ولمسته أيدينا
من جهة كلمة الحياة. " (١ يو ١ : ١)

إننا هنا أمام امتداد إلهي لكلمة الحياة، يسوع المتجسد، أقنوم الكلمة. فهو الكائن منذ البدء الأزلي وفي نفس الوقت نسمعه ونشاهده ونلمسه؛ فتجسُّد الكلمة لم يأت فجأة بإله لم يكن له وجود سابق في الأزل، ولكن الإله المتجسد هو هو الإله الأزلي بلا تغيير ولا تحول ولا امتزاج ... إنَّ ولادته قبل الزمن لم تتداخل في ولادته الزمنية وتُغيِّر من خصائص جسده المادي

الذي يُسمَع ويُشَاهَد ويُلمَس، كأي إنسان حقيقي يحيا على متن هذا الكوكب الزمني.

لقد أراد القديس يوحنا أن يوضِّح تلك الحقيقة قبل الخوض في تفاصيل حياة المسيح وتعاليمه من خلال الإنجيل الذي دوَّنه ومن خلال تفاصيل الحياة مع المسيح، في شركة الحب، التي جسَّدها أنشودة في رسائله.

فالحديث عن لاهوت الابن، ضرورة، كبداية للحديث عن تجسده، لئلا تأخذنا نشوة أعماله الزمنية وننسى أنها باللّه معمولة، بقوة اللاهوت الذاتي الذي هو في ملِئه، في شخصه الإلهي.

يكتب لنا القديس **غريغوريوس اللاهوتي** (في كتابه ثيؤفانيا ميلاد المسيح ص ٢٥ ـ ٢٦)، قائلاً:

الأبدي الذي هو قبل كل الدهور،
وهو غير المنظور،
غير المفحوص وغير الجسدي،
البدء الذي من البدء،
النور الذي من النور،
مصدر الحياة والخلود،
صورة الجمال الأصلي الأول،
الختم الذي لا يزول،
الصورة التي لا تتغير،
كلمة الآب وإعلانه،

هذا أتى إلى صورته.

كما تحدث القديس بولس، عن المسيح، قائلاً عنه أنه : "هو البداءة ὅς ἐστιν ἀρχή" (كو ١ : ١٨).

فالمسيح لم يولد في البدء الأزلي فقط ولكنه هو نفسه البدء الأزلي، **فهناك تلاصق بين الأزل والمسيح**، فلايوجد أزل قبل الابن ولا يوجد ابن بدون أزلية، لأنه هو هو البدء ومنه وله وبه كل الأشياء.

إن العلاقة الأزلية بين الآب والابن، قد أوضحها المسيح بنفسه في صلاته التي أصعدها إلى الآب، قائلاً:

"والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك
بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم
أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني
يكونون معي حيث أكون أنا
لينظروا مجدي الذي أعطيتني (منذ الأزل)
لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو ١٧ : ٥، ٢٤)

فالابن له مجد قبل كون العالم وقبل تحرُّك الزمن، والحب بين الآب والابن كان قائمًا قبل خلق الإنسان وتحرُّك قلبه بالحب نحو الله. هنا ويضع المسيح أمامنا، الحب والمجد، كبُعدان لحقيقة الوجود الإلهي الأزلي، ليعرِّف خواصه بنوعية الأبدية التي سيعاينونها بعد انتهاء الحياة؛ فهي **أبدية مغمورة في المجد ومتحرِّكة بالحب.**

لقد كانت الأمثلة التي وضعها الآباء[٢٤] لإيضاح العلاقة بين الآب والابن، هي أمثلة يتلاشَى منها العنصر الزمني للدلالة على الوحدة الكاملة بين أقانيم الثالوث؛ فالنار (كمثال للثالوث الواحد) حينما تشتعل يتولَّد النور، بلا أي فارق زمني بين ظهور اللهب وانبعاث النور. وكذلك الشمس (كمثال للثالوث الواحد) التي ترسل نورها من صميم العناصر التي تشتعل داخلها لتبدو لنا ملتهبة في كَبِد السماء وتضيء لنا آفاق الأرض، في نفس الوقت.

في ذلك البدء اللازمني كانت ولادة الابن ... الكلمة ... اللوغوس. إنَّ ولادته الأولى كانت ولادة إلهية لازمنية في صميم جوهر وجوده الإلهي الأزلي ولكن بالسقوط أصبحت هناك ضرورة لميلاد زمني، حتى يتم الفداء!! حتى تُحَل القضية البشرية، والمحكوم فيها على الإنسان، بالموت.

يكتب القديس **مكاريوس** (في العظة ٣٤) عن هدف التجسد، قائلاً:

لأن مجيء الرب كان كله لأجل الإنسان
الإنسان الذي كان مطروحًا ميتًا في قبر الظلمة والخطيئة والروح النجس والقوات الشريرة
لكي يقيم الإنسان ويحييه في هذه الحياة الحاضرة
ويطهِّره من كل سواد وظلمة، وينيره بنوره الخاص،

---

[٢٤] كما تحدث القديس كيرلس الكبير PG. 73,28

لماذا جاء

إنَّ الخطيئة التي ألقت بشباكها على البشرية وصيَّرتها أسيرة الموت، قد تغلغلت في النسيج الإنساني ولم يكن لأية قوى بشرية أو أرضية أو مخلوقة أن تنتزعها، بعد أن لوَّثت وعيه وأفعاله ونوازعه وآماله، فقد [لوَّث رؤساء هذا الظلام قلوب الجميع]، بتعبير القديس كيرلس. لذلك صار التجسد الإلهي **ضرورة**؛ فالله الظاهر في الجسد هو الوحيد القادر أن يخلِّص الجسد. والله المتجسد في الزمن هو الوحيد القادر أن يبطل سلطان الموت ويوقف جريان الزمن عند ضفاف الأبدية. لذا ولِد يسوع من عذراء بتول "... وحلَّ بيننا ἐσκήνωσεν ’εν ἡμῖν ..." (يو١: ١٤)، (نصب خيمته بيننا) (YLT) *did tabernacle among us* بحسب ترجمة الأصل اليوناني. وتلك الخيمة التي وضع قواعدها في تراب الأرض، هي جسده الذي أخذه من البتول مريم. وصار الكلمة المولود أزليًا من الآب، جسدًا، [وهو لم يزل إلهًا] [٢٥].

لقد جاء إلى البشرية ليشاركها طعامها وغذاءها وكساءها، ليتألم بألمها ويفرح بأفراحها، ينمو في زمنها ويحيا

[٢٥] مـرد ثيئوتوكيـة الخميـس (تسبحـة نصـف الليـل بحسـب الطقـس القبطـي)

في ضواحيها، يسير على ترابها ويلتحف بسمائها. فقد صار المسيح إنسانًا كاملاً بأكمل معاني الإنسانية وهو في نفس الوقت الإله الكامل!!

جاء لينتشلها من فوَّهة الجحيم التي تفتح فاها لتبتلعها وتلقيها في ظلمات دهرية. جاء ليفك أسرها من العبودية التي أحنت ظهرها في خدمة سيد قاس القلب، همه الوحيد هو إذلالها وإطفاء أي شعلة رجاء تشتعل داخل قلبها الكسير.

جاء ليعيد الصورة البهية للإنسان والتي تشوهت بالابتعاد عن الأصل المنير الكائن في المجد الأزلي والتي شكَّلها في البدء الزمني، كجوهرة ثمينة نقية ترصِّع تاج الخليقة.

جاء ليجسِّد الحب بين البشر ليستوعبوا من خلال الرؤية والمشاهدة والتذوق، هذا النسيم العلوي الذي وصلت رائحته إلى أرض بشريتنا، في المسيح يسوع.

جاء ليحرر أسرَى الدهور، الراقدون على رجاء الفجر المنبثق من الميلاد الإلهي ليسوع، في الزمن وفي المادة.

جاء ليفك طلاسم الحياة المعقدة التي لا يدرك البشر أصلها ولا غايتها، بل ويتحيرون أمام ألغازها والتي تتأرجح بين؛ الغنى والفقر ... الصحة والمرض... السعادة والشقاء ... العبودية والحرية ... الواقع والنوازع ... الحياة والموت!!

لقد جاء المسيح ليكتب عهدًا جديدًا في التاريخ البشري، عهدًا أبديًّا قائمًا على الإيمان والرجاء والمحبة كقوانين لمملكته العليا.

جاء ليأخذ الحدود الزمنية ويلقي بها في الأبد، لتنفتح آفاق غير محدودة أمام قابلي البُشرَى والسالكين في جِدَّة الحياة.

جاء ليؤكِّد أن الظلمة ليست هي المشهد الختامي في الحياة ولكن النور سيُضاء من جديد، مع يوم الحياة الأبدي الذي يَنسِج أولى أشعته في قلوب البشر، هنا في الزمن.

جاء ليقول أن إبليس ليس هو البطل المنتصر في مسلسل الحياة الحاضرة، فبالتجسُّد صار يسوع، المولود في قرية بيت لحم الفقيرة، هو بطل الحياة المنتصر، الذي جاء إلي البشرية لينتشلها من فك الحية القديمة ليخلصها ويعود بها إلى أورشليم العليا ليُسكِنها في مجد البنوة على الدوام.

لقد جاء ليعيد ترميم الطريق إلى الآب، ذلك الطريق المُهدَّم والمهجور والمغلق منذ عبور آدم إلى أرض الشقاء والأحزان، صائرًا هو نفسه الطريق للسالكين على دروب الرب.

جاء ليعيد نغمة الحق إلى أنشودة الزمن بعد أن غابت عنه طويلاً، وصار الباطل نغمة يومية في تلك الأنشودة الحزينة!! وبعد أن كانت نغمات الحزن هي أنشودة الوجود وما بعد الوجود!! أصبح تهليل الكنيسة المنتصرة يصل أصداؤه إلى

أقاصي المسكونة، بنصرة الحق على البُطل، هناك على الخشبة وهناك عند القبر.

جاء ليُعلِن عن خليقة جديدة متاحة لكل من يقبل كلمة الحياة بفرح ويحيا في شركة مع الآب وسط جماعة ملتئمة بالروح.

جاء ليهب أثواب القداسة مجانًا، خاتمًا إياها بدم صليبه، لكل من يَقبل شركة الموت والقيامة في معمودية على اسم الثالوث.

جاء ليُسمِّر، على خشبة الصليب، الصك المكتوب على البشرية ... الصك المدوَّن فيه حكم الموت على الخليقة العارفة الخير والشر بالعصيان. صك العبودية الذي في يد إبليس منذ السقوط "إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض، الذي كان ضدًا لنا وقد رفعه من الوسط، مسمِّرًا إياه بالصليب، إذ جرَّد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهارًا ظافرًا بهم فيه" (كو ٢ : ١٤ ـ ١٥).

جاء ليهب البشرية ينبوع الحياة الذي ينبع إلى حياة أبدية (يو٤ : ١٤)؛ ينبوع الروح الحاضر في قلوب تابعيه، ليرشد البشرية إلى توبتها الكاملة في الآب، لتصل إلى مليكها المترقِّب قدوم سفينتها من بحار الزمن إلى شاطِئ الأبد الدهري.

.. حقـًا جـاء ..

وُلِد يسوع، ابن اللّه، في قرية صغيرة، تُدعَى بيت لحم اليهودية[٢٦] وهي بالعبرية בֵּיתלֶחֶם والتي تعني بيت الخبز. فالمسيح هو خبزة الحياة الحقيقية حسبما أعلن هو عن نفسه قائلاً:

"لأن خبز الله هو النازل من السماء
الواهب حياة للعالم
فقالوا له: يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز
فقال لهم يسوع:
أنا هو خبز الحياة، من يقبل إليَّ فلا يجوع
ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدًا" (يو ٦ : ٣٣ ـ ٣٥)

إن المسيح يَعلَم أن الإنسان هو كائن جائع، وجوعه يمتد من الطعام إلى الأمان ... إلى الصحة... إلى السعادة ... لذا فقد أعلن، من خلال ولادته في بيت لحم (بيت الخبز) ومن خلال تعاليمه عن ذاته كخبزة الحياة، أن جوع الإنسان سينتهي فيه. فمن يأكل من هذا الخبز لن يجوع أبدًا. من يقتني خبزة الحياة لن تستطيع الحياة الأرضية أن تقتنيه ولن يستطيع العالم الحاضر أن يحاصره بالخوف من الغد وطلب السعادة الزائفة المؤقتة العابرة

[٢٦] قرية أخرى غير بيت لحم زبولون والتي ورد ذكرها في (يش ١٩ : ١٥)

كبخار يظهر قليلاً ثم يضمحل. ولن يرتكن في الحياة على المال لتأمين خبز الحياة الذي للغد، لأن المسيح بشخصه الإلهي، خبزة الدهور السرمدية، سيكون غذائه الروحي والعقلي والنفسي والجسدي، سيكون له الكل في الكل، سيجعله يتخطَّى حدود المطالب البشرية التي تؤرقه ليل نهار، من خلال عدم استقرار الحياة وتقلباتها المريرة التي تجعل من الإنسان دُمية في يد الحاجة والخوف والقلق.

لقد وُلِد المسيح في بيت الخبز، ليُقدِّم لنا ذاته خبزًا في سر الكنيسة الممتد منذ تأسيس السر في عليَّة وإلى انتهاء الحياة وقدوم المسيح مرة أخرى، ليأخذ مختاريه الذين وثقوا في مصداقية الخبز المُقدَّم على المذبح وصرخوا ليل نهار على أعتاب هيكله: [خلصنا يا ابن الله، يا من ظهرت في الجسد لتُكمِّل الموت عن البشرية وتقيمها في قيامتك. يا من تُظهِر ذاتك في الكنيسة خبزًا وخمرًا يحويان سر الحياة الموهوب مجانًا لمن يؤمن بما لا تراه الأعين ويؤمن بما لا يحتويه العقل والمنطق. خلصنا وارحمنا بسكنَى ملكوتك فينا ونحن فيه ...].

ولكن ميلاد المسيح في بيت لحم لم يؤكِّد على تلك القيمة فقط؛ قيمة الشبع الكياني للإنسان في المسيح يسوع، ولكن هذا الميلاد الذي تمَّ في قرية فقيرة بعيدًا عن أي مظهر من مظاهر المجد الإنساني، هو قبول لكل البشرية في جسد واحد

بلا أي تمايز طبقي أو عرقي أو لوني أو حضاري أو ثقافي أو مِهَني ...

فالمسيح جاء للبشرية بأجمعها وكل من فيها له نصيب متساوٍ بقيمة الأبدية، في شركة الحب، مع الثالوث المُعلَن في وجه المسيح الكلمة.

إن أحد مآسي البشرية الكبرَى هي طبقية الحياة، التي تخلق جماعة تحيا في كمال الحقوق المجتمعية وأخرى تحيا في حاجة إلى الضروريات والأوليات لتُشبِع بها أبسط احتياجاتها الإنسانية!!

وقد تَولَّد من هذه الطبقية؛ الحقد والكراهية والثورة والقتل والانتقام والسرقة ... وكثير من الخطايا والنقائص التي فتَّتت البشرية إلى أفراد متناثرين متحاربين من أجل الحصول على أكبر قدر من ملذات الحياة. وُولِدَ معها الشعار الفلسفي المعروف أن الإنسان ذئبٌ لأخيه الإنسان، يترصده كفريسة على الدوام ليقتنصه ويسلبه ماله، وبهذا ينتصر في معركة البقاء للأقوى بحسب الطبيعة والتي تطورت لتُصبِح البقاء للأصلح بحسب فكر النازية.

لذا فحينما وُلِدَ المسيح، كانت كلمته التي أراد أن يعلنها من خلال هذا الحدث؛ أنَّ البشرية كلها بفقرها وغناها هي واحد في عين الآب "لأن به (بالمسيح) لنا كلينا (اليهود والأمم)

قدومًا في روح واحد إلى الآب" (اف ٢ : ١٨). فالغنى ليس نعمة إلهية تدل على رضاء الله، كما أن الفقر ليس لعنة إلهية للتأديب والعقوبة. ولكن هناك خطة خلاصية متنوعة الطرق والطرائق يضع منها الله لكل شخص ما يناسبه وما يحتمله وما يوافق المجد الذي سيناله في الملكوت العتيد أن يُستعلَن.

إن ولادة المسيح كفقير هي أكبر دلالة على القانون الجديد الذي أتى به إلى العالم؛ أنَّ حياة الإنسان ليست في المال ولا في الغنى ولا في السلطة ولا في المجد ولا في العظمة ... ولكنها في أعماقه التي لن يستطيع أن يكتشفها إلا على ضياء الروح. هناك في أعماقه توجد شعلة حياة صادقة مُوقَدة من الأبدية وإليها ترنو وتشتاق. فالإنسان يصير إنسانًا حينما يُدرِك، من خلال حدث الميلاد الزمني لملك الملوك ورب الأرباب وسيد الخليقة وخالق الكون، أن الحياة ليست في ظواهرها وليست في قشورها الخارجية وليست في أعين ومسامع الآخرين الملتفة حول المال والسلطة؛ ولكنها في داخل كل إنسان يصمت في محضر الله، ليُبصِر في سكينة العالم، مجد وغنَى وسيادة إنسانية بالحق، لن تنتهي بتوقف الزمن ولن تُترَك عند ناصية القبر ولن تستطيع الحياة أن تبث فيها القلق الخائف من الغد، لأن تلك الحياة هي المسيح ذاته الساكن في قلوب مختاريه، ليدخل ويتعشى ويبقى إلى الأبد.

يكتب **ماراسحق** عن ذلك الكنز الداخلي الذي يحوي قيمة ومعنى الحياة (يسوع)، فيقول (في الجزء الثاني/ الميمر الثاني/ ٨):

احرص على أن تدخل إلى الكنز الذي في داخلك
لكيما تبصر الذي هو في السماء،
لأن هذا وذاك واحد،
وبدخولك أحدهما تنظر الاثنين معًا.
دَرَج الملكوت مخفيٌ داخل نفسك،
غُص أنت عميقًا في ذاتك،
واهرب من الخطيئة
وهناك ستجد مصاعدَ تصعد بها.

إن تجسُّد المسيح هو نقطة الانطلاق في حياة البشرية، التي فتحت لها أبواب الرجاء في امتداد ما بعد تلك الحياة المفعمة بالمتناقضات والممتلئة بالحيرة والألم ... امتداد هو في حد ذاته حلاً جوهريًا لأية قضية إنسانية أو ضيقة إنسانية أو ألم إنساني، لأن هذا الامتداد يسلب الحياة الزمنية مركزيتها وبالتالي قدرتها على تحطيم آمال البشر في غدٍ سعيد. لذا فإن المسيح (الفقير اللاطبقي/ المُشبع لكيان الإنسان)، سيكون هو قاعدة حديثنا في إيجاد الحل للمشكلات الوجودية الإنسانية والتي طرحناها في الفصل الأول.

إنَّ الزمن هو في جوهره، حدود قد وضعها الله للخليقة في الجسد، وهذه الحدود ليست مادية ولكنها تسري في تيار دائم غير مرئي، تيار يتكثف ويتنامَى ويتصاعد، يمكن رصده من خلال عملية النمو التي تطرأ على أي كائن حي.

إنه أشبه بشجرة تتساقط أوراقها التي تمثل الأيام والشهور والسنين وستصل في النهاية إلى العراء الكامل حينما تُستعلَن شجرة الحياة التي لا يموت آكلوها (الحياة الأبدية).

ويمكننا من خلال المصطلحات الزمنية التي يستخدمها كتَّاب العهد الجديد أن نقترب من هذا المعنَى ... ومنها المصطلح الذي استخدمه القديس بولس في رسالته إلى أفسس (١ : ١٠):

✠ "... **لتدبير ملء الازمنة** (τοῦ πληρώματος τῶν καιρῶν) *"fullness of times*

وأيضًا في رسالته إلى غلاطية (٤ : ٤):

✠ "ولكن لما جاء **ملء الزمان** (τὸ πλήρωμα τοῦ χρόνου) *"the fullness of the time*

كما دعَى المسيح في بداية خدمته إلى التوبة، نظرًا لاكتمال الزمان، قائلاً:

* "قد **كمل الزمان** (πεπλήρωται ὁ καιρὸς) *the time is fulfilled* واقترب ملكوت اللّه، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر١ : ١٥)

إنَّ [امتلاء الزمان/ اكتمال الزمان]، يعطينا الانطباع بحركة تصاعدية للزمن نحو نهاية معينة من قِبَل اللّه. خاصة إن أدركنا أن قياس الزمن قديمًا كان يتم من خلال ساعة رملية، تعبِّر عن انتهاء الوقت من خلال امتلاء القارورة الزجاجية، بالرمال المنسابة، في إيقاع منتظم.

كما أنَّ الزمن مرتبط ارتباط وثيق بالوعي الإنساني، فالوعي هو الذي يستشعر الزمن وإن توقَّف الوعي توقفت حركة الزمن الذاتية بالنسبة لهذا الشخص، لذا فإن الغياب المَرَضي عن الوعي، يلازمه دائمًا فقدان الشعور بالزمن.

إنَّ الزمن يبقَى هو الاشكالية الأعظم في الحياة، فبمرور الزمن تمضي القافلة البشرية إلى نهايتها ويقترب ميعاد إسدال الستار على المسرح البشري، ليعلِن عن نهاية، غالبًا ما تكون درامية، للحياة!! فالموت هو الميقاتي الذي يحدِّد توقُّف عمل الزمن في حياة الإنسان، ليأخذه إلى عالم آخر غير خاضع للزمن وغير محصور بالنهايات.

من هنا نجد أنَّ الحل الأوحد للزمن، الذي يهدِّدنا على الدوام بقرب النهاية، هو التسامي فوق الزمن ومواجهة جريانه المتدفق، بشجاعة وجرأة تتحدَّى تلك النهاية. وكأن البشرية على موعد للقاء الموت (شوكة الزمن)!!

وهذا التسامي فوق الزمان ليس انسحاب مَرَضي من الزمن والواقع، لخلق عالم وهمي تجد فيه النفس راحتها وسعادتها المفقودة على أرض الواقع. وليس يوتوبيا ذهنية تبحث عن المدينة الفاضلة المثالية في مكان ما في اللاوعي، بدلاً من الوعي الذي ينهار من قسوة الحياة الزمنية وسطوتها. ولكنه دخول في واقعية أخرى؛ **واقعية الأبدية**، التي لا تلمسها حواس الجسد، بينما يمكن لبصيرة النفس المدرَّبة أن تعاينها وتحياها على الدوام. ومع ذلك يبقَى التسامي الصحي السوي الأخروي (الاسخاطولوجي) فوق الزمن، نسيج الكون المخلوق، صعب للغاية.

فمن جهة، ليست هناك رؤية واضحة، بقياس الحواس، لما بعد الزمن. ومن جهة أخرى، تبقَى الخبرة الإنسانية بكل امتدادها هي وليدة الزمن، ويبقى التاريخ الذي ندوِّنه هو رصد لحركة الزمن وتفاعُل الإنسان معه سلبًا وإيجابًا. لذا فإن التسامي فوق الزمن يتطلب الدخول إلى عالم غير خاضع للزمن وتذوُّق خبرته ورصد تاريخه السرمدي كقوة دفع لوعي

الإنسان، ليعلو فوق الزمان الحاضر. **وهذا عينه ما حققه التجسد الإلهي**

إن مجيء الله إلى عالمنا في شخص يسوع، هو دخول الأبدية بملئها في الزمن، إنها حركة خلاصية لانتشال البشرية من أسر الزمن، بالدخول إلى عالم يسوع المسيح، ابن الله. ولعلَّ حديث المسيح في سفر الرؤيا، القائل: "أنا الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر" (رؤ ٢٢ : ١٣)، يؤكِّد على امتداد المسيح فوق الزمن، مع كونه متجسدًا داخل عباءة الزمن المادية، بشهادة التاريخ والسجلات والوثائق.

إنَّ هذا الإعلان الذي تلقاه يوحنا ودوَّنه للكنيسة وللعالم، للتأكيد على سرمدية يسوع كأقنوم موجود وحي قبل التجسد، له علاقة وثيقة بالإعلان الذي تحدَّث فيه القديس بولس عن الملء في المسيح يسوع؛ "قامة **ملء المسيح**" (اف ٤ : ١٣). فالمسيح وحده هو الذي يحوي الملء، **فالبداية والنهاية الزمنية هي جزءٌ من كلٍ في المسيح** وذلك لأنه كائن قبل بدء الزمن. لذا فقد قال لليهود، في محاولة منه لإزالة البرقع من على عقولهم المتحجرة: "الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم **أنا كائن** ἐγὼ εἰμί (أنا هو)" (يو ٨ : ٥٨) ونحن نعرف أنَّ (أنا هو) هو الاسم الذي اختاره الله لنفسه حينما ظهر لموسى على الجبل[٢٧]،

---

[٢٧] بحسب الترجمة السبعينية للعهد القديم

فالمسيح الذي يكلِّم اليهود في تلك اللحظة من الزمن ... في ذلك اليوم ... في ذاك الشهر ... وفي تلك السنة ... هو الإله الكائن قبل إبراهيم وقبل الخليقة. إنه حاضر في الزمن ليفتدي الإنسان وليفتدي الزمن لصالح الإنسان، وذلك من خلال رفع الإنسان فوق الزمن بقوة سرمديته الإلهية.

إلا أن اليهود لم يستطيعوا أن يدركوا لازمنية يسوع كإله، فكان رد فعلهم عنيفاً للغاية؛ "**فرفعوا حجارة ليرجموه.** أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم. ومضى هكذا"(يو ٨ : ٥٩).

إننا نجد في سفر الرؤيا، عبارة تتكرر خمس مرات، عن زمن الله (إن جاز التعبير)، إذ نقرأ:

* "يوحنا إلى السبع الكنائس التي في آسيا، نعمة لكم وسلام من **الكائن والذي كان والذي يأتي** ὁ ὢν καὶ ὁ ἦν καὶ ὁ ἐρχόμενος ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه" (رؤ ١ : ٤)
* "أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب **الكائن والذي كان والذي يأتي** ὁ ὢν καὶ ὁ ἦν καὶ ὁ ἐρχόμενος القادر على كل شيء" (رؤ ١ : ٨)
* "والأربعة الحيوانات، لكل واحد منها ستة أجنحة حولها ومن داخل مملوءة عيونًا ولا تزال نهارًا وليلاً قائلة: قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شيء، الذي

كان والكائن والذي يأتي ὁ ὢν και ο ἦν και ὁ ἐρχόμενος" (رؤ ٤ : ٨)

* "... قائلين: نشكرك أيها الرب الإله القادر على كل شيء، **الكائن والذي كان والذي يأتي** ὁ ὢν καὶ ὁ ἦν καὶ ὁ ἐρχόμενος لأنك أخذت قدرتك العظيمة وملكت "

(رؤ ١١ : ١٧)

* "وسمعت ملاك المياه يقول: عادل أنت **أيها الكائن والذي كان والذي يكون** لأنك حكمت هكذا"

(رؤ ١٦ : ٥)

إنَّ هذا الإعلان المتكرِّر عن كينونة الله في الماضي والحاضر والمستقبل، هو إعلان يكشف لنا عن البُعد اللازمني في الله، وذلك في خِضَّم الحديث عن أواخر الأيام وبدايات الأبدية. فـ (**كان وسيكون**) هما امتداد الأزل والأبد، بينما (**الكائن**) هو الحضور الإلهي في واقع البشر التاريخي والزمني. إنَّ هذا الإعلان يطمئن النفس الخائفة من الزمن؛ فالله الأزلي الأبدي، هو هو الله المتجسِّد في المسيح يسوع، الحاضر معنا على الدوام، والمشاركنا في اللحم والدم ... الألم والفرح ... الاحتياج والفيض ... هو الله الذي فيه ملء الملء. فأزلية الله وأبديته، لم يلغيا حضوره معنا في الزمان، ليجعلنا نستنشق نسيم الأبدية، حتى نستطيع أن نغوص في الزمان مرة أخرى، برئتين ممتلئتين بهواء الأبدية الحقيقي.

إننا حينما ننشِد في الكنيسة قائلين: [غير الزمني صار زمنيًا ...] [٢٨] هذا لا يعني خضوع المسيح للزمن، لكنه دخول مؤقت للعالم، لِيَهِب البشرية، من خلال خلاصه ونصرته على الزمن، إمكانية أن تصير لازمنية، بالدخول في شركة مع غير الزمني، أي اللّه الثالوث. لذا يمكننا القول، **أنَّ غير الزمني صار زمنيًا، ليأخذ أسرى الزمن ويجعلهم لازمنيين**، وهذا هو ملكوت اللّه. إنه توقُّف الزمن العامل في البشرية من خلال عملية الالتصاق بغير الزمني.

يكتب لنا القديس بولس عن سر تدبير الزمن، قائلاً:

"لتدبير ملء الأزمنة،
ليجمع كل شيء τὰ πάντα **(الكل) في المسيح؛**
ما في السماوات و ما على الأرض، في ذاك" (أف ١ : ١٠)

إنَّ القديس بولس هنا يفتح أعيننا على سر التدبير الإلهي بتجسد الابن في ملء الزمان وذلك ليجمع الكل في المسيح. ففي النص اليوناني استخدم كلمة τὰ πάντα أي **الكل**، والتي تعني (كل شيء وكل أحد). ففي المسيح المتجسد، بالتدبير الذي قبل الأزمنة الأزلية، انجمعت الخليقة كلها في ذاك الإله السائر في لحظة من الزمان على أديم الأرض.

---

[٢٨] ثيئوتوكية الأربعاء/ القطعة السابعة (تسبحة نصف الليل بحسب الطقس القبطي)

لذا فإن الزمن ينال قيمته وتتحقق غايته في المسيح. فالمسيح الابن الأزلي كان هو نقطة الانطلاق للبشرية، فوق الزمان الحاضر، حينما رأت في وجهه حضور الأبدية وتنسمت من رائحته نسيم الملكوت وشَخَصَت في النور المنبعث منه وأدركت أنه ليس نورًا مخلوقًا ولكنه نور متفجر أزليًا، لا يخبو ولا يتوقف، بل ينبعث على كل من رفع عينيه فوق الزمن، لتنفتح بصيرته ويدرك بيقين الإيمان القلبي، أنَّ الحياة ليست هي السُكْنَى ولكنها الطريق المؤدي إلى الميناء الدهري في الثالوث.

لقد أعطى المسيح لتلاميذه وعدًا حينما ظهر لهم على الجبل في الجليل، قائلاً: "ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨ : ٢٠). إن المسيح وعد تلاميذه، باستمرار حضوره بجانبهم على الدوام، فالحضور الإلهي في الزمن، بعد انتهاء فترة حياة المسيح بالجسد المادي على الأرض، هو امتداد للنصرة التي أخذناها على سلطان الزمن وهو من ثمار دخول الأبدية في واقع الإنسان المسيحي. فحينما تشتد قسوة الزمن وتتراكم العوائق في المسيرة ويتكثَّف الضباب فتصبح الرؤية غير واضحة، هنا يبقى حضور الله نورًا مضيئًا من نافذة الأبدية ليؤكِّد للإنسان حقيقتها، وأنه مدعو إلى اجتياز مرحلة الأرض، لتبدأ الحياة الحقة في ملكوت يسوع المسيح (رؤ ١ : ٩).

ولقد تحدث القديس بولس عن افتداء الوقت، قائلاً:

✠ **"مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة"** (أف ٥ : ١٦)

* "اسلكوا بحكمة من جهة الذين هم من خارج، **مفتدين الوقت**" (كو ٤ : ٥)

لقد وردت كلمة (مفتدين) في النص اليوناني ἐξαγοραζόμενοι وهي تحمل معنَى الشراء بكثرة *buy up* وهذا الشراء للزمن يكون من خلال تحويل الزمن إلى قيمة أبدية وتحويله من حساب الأرض إلى حساب الأبدية، أي من العمل في مشاريع أرضية، إلى السعي في مشروع الحياة الأعظم؛ ملكوت الله.

ولعلَّ هذا الكلام يبدو للبعض، نظرة فلسفية للزمن والأبدية لا تتعدَّى كلمات على ورق، إلا أنَّ من اختبر الصلاة الحقّة واختبر حضور الله في الإفخارستيا بوعي منفتح، يستطيع أن يؤكِّد على صدق حضور نسيم الأبدية إلى عالمنا.

إنَّ هذا التحويل للزمن إلى أبدية، لن يتحقق إلا من خلال إيمان بألوهية يسوع المتجسد أولاً. فكيف يمكن لمن لا يؤمن بألوهية يسوع الزمني، أن يدخل في شركة مع يسوع اللازمني، ليتسامَى فوق الزمن؟؟

لذا فإن الإيمان بالمسيح ربًا وإلهًا هو الخطوة الأولى في مسيرة الدخول في الأبدية والتسامي فوق الزمن، للتحرُّر من سطوة الزمن.

لقد قال المسيح لمارثا عند قبر لعازر أخيها: "ألم أقل لكِ إن آمنت، ترين مجد الله" (يو ١١ : ٤٠). إن هذا الطلب يردده الله

بالروح في مسامع الخليقة كلها، حتى يستطيع أن يحوِّل مسارها من الزمن إلى الأبدية. فالإيمان بالمسيح وقدرته الإلهية، يفتح أمام البشرية آفاقًا لامحدودة في معاينة مجد الله من خلال الشركة مع الرب يسوع. وهذا المجد الذي تحدث عنه المسيح، هو مجد قدرته على إخضاع الموت والزمن لمشيئته. فحينما كانت مشيئة المسيح إقامة لعازر، لم يستطع الموت أن يعارض ولم يستطع الزمن أن يحتج، لأن كلمة الله لها سلطان على الموت والزمن.

لذا فإن القاعدة الأساسية لأي تحرك نحو الأبدية، لإيقاف سلطان الزمن، يجب أن تكون صادرة عن إيمان حقيقي بالمسيح يسوع؛ إيمان بألوهية المسيح الكاملة ... إيمان بوحدانية الابن مع الآب في الجوهر، وأنَّ له كل ما للآب من سلطان على الخليقة.

ولكن هذا الإيمان يحتاج على الدوام إلى تجديد وإشعال مستمر، حتى تبقى الأبدية في أفق المسيحي، لا يحجبها ضباب الشهوة ولا غبار العالم ولا عقارب الزمن.

يكتب **يوحنا زيزيولاس**، عن حقيقة الوجود المسيحي، قائلاً:

إنَّ الوجود المتأصِّل في الحياة الآتية،
هو الوجود الذي تذوَّق القيامة في المسيح،
وصار متحركًا نحو وجود مستقبلي وآتٍ.

إننا أمام ثلاثة أفعال تلخِّص الوجود المسيحي الحقيقي وهي؛ **التأصُّل ... التذوُّق ... التحرُّك.**

فالوجود المسيحي، بحسب زيزيولاس، يرتكز في الأبدية، يلقي جذوره في تلك التربة غير الزمنية، بحيث تصبح الأبدية هي مركز ثقله الإنساني الذي يتذوق من خلاله عربون الوليمة السمائية، كما تصبح هي دافعه للحركة لنوال ذلك الميراث السمائي. كما أنَّ الوجود المسيحي يستمد إيمانه من خلال تذوُّق القيامة، كالحدث الذي شرَّخ جدران الزمن بإماتة الموت وبحضور الأبدية في موكب مجد وبهاء قيامة المسيح. كما أنَّ الوجود المسيحي هو وجود متحرِّك، في سعي دؤوب، نحو دعوته العليا، نحو المستقبل دائمًا، نحو تحقيق رجاؤه في معية الرب الدائمة، بعيدًا عن خرائب الزمن وأطلال الحياة المادية.

ولكي يصبح الكلام عمليًا، فإنَّ هناك فعلان أساسيان في حياة المسيحي لهما أعمق الأثر في تثبيت البصيرة على الأبدية على الدوام، كما أنهما الوسيلة المُثلى للتحقُّق من انكسار شوكة الزمن وانحسار سلطانه أمام حضور اللّه. إنهما؛ الصلاة والإفخارستيا.

إنَّ **الصلاة** هي الفعل الأساسي الذي من خلاله يمكن للمسيحي إيقاف سلطان الزمن على حياته ومقدراته ومصيره؛ ففي الصلاة يتخطَّى الإنسان حواس الجسد، فيتحدث ويخاطب

غير المرئي، في إيمان كامل بحضوره وإصغائه، وهذا الإيمان بحضور الله، هو في حد ذاته إيمان بالأبدية.

ويدوِّن لنا التاريخ الرهباني حالات من الدَهش *ecstasy* تحدث أثناء الصلاة، والتي فيها يتوقف سلطان الزمن وتسبح الروح في لامحدودية الأبدية، كسبق تذوق لسُكْنَى الروح في المطلق الأبدي، بعد توقف نبض الحياة الأرضية.

ويُحدِّثنا **ماراسحق** (المئويِّة الرابعة) عن الدَهش، فيقول:

هوذا ما تقوله الأسفار الإلهية:
"ولما صارت الشمس إلى المغيب
وقع على أبرآم سبات"؛
وأيضًا: "فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم، فنام"
وتُترجم كلمة (سُبات) أو (سكون) في اليونانية إلى (دهش).
وهذا هو ما يقوله المفسِّر في معنَى (الدهش):
[الدهش هو ما يكون خارجًا عن النظام العادي
وبعيدًا عن كل ما يُمكن للإنسان أن يحسه].
والآباء المتوحِّدون يدعونه (انجماع الذهن) الذي يكون من النعمة، وهو عربون أفراح الدهر الآتي.

ويضيف ماراسحق في موضع آخر (الجزء الثاني/ الميمر التاسع)، متحدثًا عن القديس أرسانيوس الذي **كان يتحدى الزمن بالصلاة**، متخذًا من ليلة الأحد موعدًا لهذا الصراع وكأنه يترقب إشراقة الأبدية الكاملة في يوم الأحد الأبدي، فيقول:

فهذا الرجل الشهير الذي من الإسقيط [أي أنبا أرسانيوس]
كان قد انقطع تمامًا عن ملاقاة جميع الناس،
ونقل مسكنه إلى مكان بعيد في البرية،
أبعد حتى من كافة الإخوة،
وأعطى نفسه تمامًا لعمل السهر العجيب.
وقد كان وقوفه في السهر يتميز عن جميع الآباء في زمانه،
وسيرته تحمل الشهادة على ذلك.
فقد قيل عنه أنه كان في (ليلة) يوم الرب،
يجعل الشمس خلفه ويبسط يديه نحو السماء
إلى أن تشرق الشمس في وجهه.

إنَّ الصلاة ضرورة لتعميق الوعي بالأبدية في حياتنا، لأن الزمن يحاصرنا من كل صوب وجهة، يعمل فيما حولنا وفيمن حولنا، يطوي صفحات إنسانية ويفرش الورود على أرض الحاضر، لآخرين، ليستوقفهم بين عقاربه وليحصرهم في العمل في كرمه المؤقت، دون أن يمنحهم الفرصة للعمل من أجل الكَرْم الدائم الممتد خلف الحياة المنظورة.

هنا وتقف الصلاة كفعل إنساني عميق، يثور على حدود الزمن ويشكِّك في إدعائاته بأنه الحقيقة الوحيدة؛ فمن خلال الصلاة التي في الروح، يتأكد الإنسان من حقيقة الأبدية ويشحن بطارية إيمانه ليسير في الحياة على رجاء تلك الأبدية، ليواجه سطوة الزمن بالرجاء الحي في مستقبل حقيقي ممتد لا يتوقف ... متسع بإتساع الله غير المحدود.

لذا فإنَّ القديس بولس يتحدث بحس إعلاني، فيقول: "لأننا بالرجاء خلصنا ἐσώθημεν" (رو ٨ : ٢٤)، فالرجاء هو بالفعل مخلِّصنا من سلطان الزمن الذي يهددنا بالموت وانتهاء الحياة ... هو مخلِّصنا من استعباد الزمن لخدمة الأرض ... هو مخلِّصنا من خدعة الزمن بديمومة الأرض. فقط إن كان رجاء في الثالوث الأزلي والأبدي معًا.

وعن ذلك الشعور بالانفلات من الزمن والذوبان في الأبدية، نقرأ جزءًا من صلوات ماراسحق (الجزء الثانى/ الميمر الرابع)، إذ يقول:

ليتني أبلغ يا مخلصي، ذلك العبور العجيب
الذي به تهجر النفس العالم المرئي،
وتنبع فيها الأفكار الجديدة
التي تقودها للدخول إلى العالم الروحي
وإدراك الأفهام الجديدة!

بعد ذلك تأتي **الإفخارستيا**، كفعل يحقِّق ملكوت الله في قلوبنا. فالله الظاهر في الجسد يصبح في الإفخارستيا؛ الله الظاهر في الخبز والخمر، لا كإعادة للتجسد ولكن كامتداد فعلي لمفعول التجسد في تغيير حياة البشر من خلال ربطهم بالأبدية. وهذا الحضور الإلهي الدائم للكلمة المتجسد، يسوع، في وسطنا، هو بمثابة تأكيد مستمر من الله للكنيسة أنها

ليست مرتبطة بالزمن وأنَّ الزمن سيبطُل ولكن الروح الإنسانية خالدة في النور أو في الظلمة، حسب الإيمان والعمل والسلوك.

إنَّ سر الإفخارستيا ليس هو سر حضور الله في المادة المأكولة فقط ولكنه سر حضور الأبدية في الزمن وفي الإنسان!! سر التداخل بين الزمن المحدود والأبدية المطلقة، سر انكسار سلطان الزمن الذي يستخدمه الشيطان كقوة ضاغطة على الإنسان ليرسِّخ جذوره في الأرض ويمنع أغصانة الوليدة من التطلُّع للأبدية. لذا فإنَّ هذا السر له مكانة فريدة في الكنيسة كمركز للأسرار. ولقد أدركت الكنيسة مبكرًا جدًا هذا الأمر، حتى أنَّ كسر الخبز (الإفخارستيا) كان أحد الدعائم الأساسية في حياتها التعبدية، فنقرأ عن الكنيسة في سفر الأعمال: "وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة و**كسر الخبز** والصلوات " (أع ٢ : ٤٢).

لقد حددت الكنيسة، منذ البداية، يوم الأحد ليكون يوم الرب، تجتمع فيه **معًا مع الرب**، تصلي وتشارك الفقراء حاجاتهم وتقيم الإفخارستيا وتُعلِّم عن حياة يسوع.

ويوم الأحد هو يوم القيامة، فقد وصفه الآباء بأنه اليوم الثامن!! في إشارة إلى الأبدية. فالأيام الستة الأولى كانت هي أيام الخلق وجاء اليوم السابع الذي نحيا فيه الآن، الذي يمثل الحاضر الزمني، ثم يوم الأحد الدهري ... أي الأبدية الممتدة في آفاق اللانهاية.

إنَّ القيامة كانت هي الفعل الإلهي الذي أكمل هزيمة الموت وبالتالى الزمن. فحينما جاءت لحظة الموت على المسيح وهو مُعلَّق على خشبة الصليب، توقف زمن المسيح المتجسد على أرضنا المادية واعتقد الشيطان أنه انتصر من خلال إنهاء زمن المسيح في الجسد، بالموت. ولكن بالقيامة التي حدثت في فجر الأحد، عاد المسيح بالبشرية، فيه، إلى الحياة، ليُبطِل بالقيامة سلطة الموت وسلطان الزمن. وأصبح يوم الأحد تعبير عن الأبدية التي توغلت في الزمن، من خلال قيامة الرب. وأصبح الإنسان، الذي في المسيح يسوع، له قدرة الانفلات بقوة قيامة المخلِّص، من بين أنياب الموت المحتضر. ولهذا كان يوم الأحد هو موعد لقاء الكنيسة الأولى للتعبد الليتورجي، كتعبير عن احتفالها بتقلُّص سلطان الزمن والتأكيد على إيمانها بالأبدية حتى لا يُغريها الزمان الحاضر باللذة والشهوة والخطيئة. لذا كان نشيدها الدائم حتى الآن والذي ترتله وكأنها تزيح غلالة الزمن لتعاين ومضات الأبدية ... [هذا هو اليوم الذي صنعه الرب..] [٢٩].

يكتب القديس **كليمندس السكندري** عن يوم الراحة الحقيقي، فيقول (متفرقات ١٦/ ١، ١٣٨):

فندعو الآن اليوم السابع، راحة،
لأنه يُعِدَّنا، بالانقطاع عن الشرور،
لليوم الأصلي الذي هو راحتنا حقًا،

---

[٢٩] التسبحة التي نرتلها في قداس الكلمة بعد دورة الحمل (حسب الطقس القبطي)

أول ميلاد النور،
فيه نتأمل الأشياء كلها ونرثها كلها.

كما يشدد القديس **باسيليوس** على أهمية العبادة الحارة في ذلك اليوم، حتى ينطبع في النفس حس الأبدية، فيقول (الروح القدس/ ٢٧، ٦٧):

فمن اللازم أن تعلِّم الكنيسة أبناءها
أن يقيموا الصلوات وهم وقوف
في ذاك اليوم (الأحد)،
حتى ينطبع في ذهننا تذكر لا ينقطع
للحياة التي لا نهاية لها،
فلا نهمل أن نعد الزاد لذلك الرحيل ...

يرصد لنا القديس متى، في إنجيله، تلك المفاجأة التي فجرها المسيح، للتلاميذ، ليلة صلبه، قائلاً:

" وفيما هم يأكلون
أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر
وأعطى التلاميذ وقال:
خذوا كلوا، هذا هو (الزمن الحاضر) جسدي،
وأخذ الكأس وشكر
وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم،
لأن هذا هو (الزمن الحاضر) دمي
الذي للعهد الجديد
الذي يسفك (الزمن المستقبل) من أجل كثيرين
لمغفرة الخطايا " (مت ٢٦ : ٢٦ ـ ٢٨)

إنَّ المسيح حينما أعطى تلاميذه الخبز والكأس معلنًا أنهما جسده ودمه، كان هذا الفعل حاضرًا بالنسبة للتلاميذ ولكنه في تلك اللحظة، لم يكن قد صُلِب بعد ولم يكن جسده قد انكسر بالألم ولا دمه قد سُفِك على رابية الجلجثة. ولكن المسيح قدَّم لهم هذا السر في **لحظة لازمنية** يمتزج فيها الحاضر (تأسيس السر) والمستقبل (فعل الخلاص بالموت على الصليب) في إشارة منه أنَّ هذا السر يتعدى حواجز الزمن بين الماضي والحاضر والمستقبل، مع أن المسيح كان من الممكن لديه، أن يؤسِّس هذا السر بعد قيامته، في الأربعين يومًا التي كان يلقِّن فيها التلاميذ الأمور المختصة بالملكوت. **ولكن المسيح كان يريد أن يعلن أنَّ الإفخارستيا، حيث قوة الخلاص مقدمة في جسده ودمه الإلهيين، هي فعل لازمني يؤكِّد على التداخل الذي حدث للأبدية في قالب الزمن، من خلال التجسد وأنَّ الماضي والحاضر والمستقبل قد امتزجوا معًا في بوتقة الأبدية لصُنع زمن إفخارستي جديد!!**

إننا ندرك في حياتنا أنَّ الزمن الفعَّال دائمًا هو الحاضر، لأن الماضي أسير لفائف التاريخ والمستقبل هو حلم يداعب الخيال، لأن الزمن لم يعبر عليه ليحوله إلى واقع. ولكن ما يحدث في الإفخارستيا هو استحضار لأبعاد الزمن الثلاثية؛ (الماضي/ الحاضر/ المستقبل) لتكون فعَّالة في آنٍ واحد!! ولعلَّ ذلك المفهوم نجده عمليًا في الطبيعة؛ فالنجوم التي تلقي بضيائها على أرضنا المستلقية في ظلمة المساء، قد تكون غير موجودة في الحاضر بالرغم من أنَّ ضياءها موجود في الحاضر!! وذلك لأن سرعة

الضوء (٣٠٠٠٠٠ كم/ الثانية ـ في الفراغ) وقد يحدث أن يتلاشى النجم بينما يبقى ضوئه مرتحلاً حتى يصل إلى الأرض والبشر، فيعتقدون أن النجم له وجود في الحاضر من خلال رؤية الضوء، إلاَّ أنَّ الضوء قد يكون ذكرى متأخرة لنجم قد ارتحل إلى العدم تحت سلطان ناموس الكون المُحكَم.

فالإفخارستيا على نفس القياس (لكن بالتأكيد على الحضور وليس التلاشي)، لا تصنع ذكرى ذهنية لتاريخ انقضى ولكنها تستحضر فعل الخلاص الماضي في الحاضر، بحضور المسيح شخصيًا وهذا هو المعنى الأصيل لكلمة ἀνάμνησις والتي تُرجمَت بمعنى الذكرى في نصوص العهد الجديد. "وأخذ خبزًا وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً: هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم، اصنعوا هذا **لذكري** "τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν (لو٢٢ : ١٩).

من جهة أخرى، فإن الإفخارستيا تستحضر الأبدية، في الحاضر، من خلال تذوق الملكوت كعربون. **فالحاضر الإفخارستي هو حاضر يحمل في نسيجه قوة الخلاص الماضية وهبة الملكوت المستقبلية، لذا فإن اللحظة الإفخارستية هي لحظة ما فوق الزمن وإن كانت تحدث في عمق الزمن.**

وأخيرًا نقرأ كلمات الأب **الكسندر شميمن** عن النور المشرق من خلف مذبح الإفخارستيا (الإفخارستيا سر الملكوت)، إذ يقول:

في عتمة ليل العالم الساقط،
القابع تحت نير الخطيئة والموت،
كشف لنا العشاء السري،
عن النور الإلهي الفائق العالم،
الذي لملكوت السموات ...

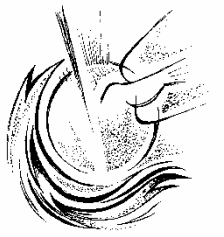

المسيح و الشر

إنَّ الشر هو قوة سلبية هدَّامة تُنشِئ البؤس والألم والفُرقة والأذى في المجتمع البشري. وقد ظهر الشر في عالمنا بسقوط الإنسان وإن كان مقترنًا زمنيًا بسقوط الملائكة قبل الإنسان. وبمرور الزمن أصبح الشر متواجدًا بكثافة في الواقع البشري، بل وأصبح له الكلمة العليا في الكثير من الأحيان، لأنه أصبح قانون الحياة المادية التي يُحرِّك خيوطها الشيطان!!

والشر ليس قوة مخلوقة كالخير، أي أنَّ الله لم يخلق الشر حينما خلق الكون والإنسان. فالشر هو وليد حرية قد وهبها الله لخليقته وأُسيئ استخدامها، فانحرفت قاطرة الحياة عن طريقها المفترض وسارت في طريق آخر، نحو الهاوية. وعلى الجانب الآخر، قد خلق الله الخير، حينما خلق الإنسان على صورته كشبهه. لذا فإن أعماق الإنسان تئن حينما يقتحمها الشر، لأنه عنصر دخيل على كيانها النقي، بينما يظل هناك صدىً خافت لا يتوقف يوجِّه بوصلة السلوك الإنساني نحو أصله المجبول من روح الخير.

إنَّ الشر ليس فعلاً ذاتيًا له وجود حقيقي ولكنه في جوهره، غياب الخير وتوقف نبضات الحياة الأبدية من روح الإنسان،

لتبدأ في الحال نبضات أخرى في تحريك الإنسان وتوجيه سلوكه. إنها نبضات الموت والغواية والشهوة التي تتملك عليه، حينما يترك بوعيه أرض الخير ويتغرب في أرض الشر. لذا فإن الشر لا وجود له مستقلاً، تمامًا كالظلمة التي هي غياب النور، فنحن نُوقِد النور ولكننا لا نستطيع أن نوُقِد الظلمة، فهي تتسلل حينما يتوقف النور عن الانبعاث، تمامًا كالشر المتسلل في غيبة الضمير المستنير بروح الله.

من هنا يمكننا أن ندرك، أن قوة الخير في الإنسان أكبر من قوة الشر (لأن الخير فعل مستقل بينما الشر هو توقف الخير عن العمل)، فإن استطاع الإنسان أن يتدرب على استخدام قوى الخير التي في داخله ويوجهها نحو الله والآخرين، سوف يستطيع أن يرى في داخله الصورة الأصلية مرة أخرى؛ صورة الله المشرقة بالحب، بل ويتغير يومًا بعد يوم، إلى تلك الصورة عينها.

إن الفداء الذي قدَّمه المسيح للبشرية، مُسمَّرًا على خشبة وله صورة اللعنة، هو الذي أوقف جريان الشر وزحفه على الكيان الإنساني وهو ما أعلنه القديس بولس، بهتاف يحمل أريج النصرة والغلبة، قائلاً:

"وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء
في الفكر، في الأعمال الشريرة، قد صالحكم الآن،
في جسم بشريته بالموت
ليحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه" (كو ١ : ٢١)

فلولا التجسد الإلهي (جسم بشريته) لما كان الموت الذبائحي ولما كانت النصرة الإنسانية في المسيح ولما كانت رايات المصالحة قد ارتفعت بين الأرض والسماء، بأيدي الملائكة والبشر.

إذًا، لقد بطل مفعول الشر في جسد المسيح، حينما حمل بنفسه شرور البشرية على مدى العصور، في جسده وارتفع على خشبة الموت، ليذوق الموت بالجسد، أو بالأحرى ليميت الشر في جسده ويقوم بالجسد الجديد ويعطيه للبشرية، فتستطيع البشرية التي آمنت بيسوع كابن لله، أن تتذوق نكهة النصرة وتتلمس بيقين الإيمان اندحار سلطان الشر والشرير في المسيح يسوع وذلك حينما تحيا بمقتضى المصالحة التي تمَّت بين الله والناس، في يسوع، ابن الإنسان/ ابن الله.

ولعلَّ الدارس لكلمة المصالحة بحسب الأصل اليوناني ἀποκατήλλαξεν يجد أنها تعني الانتقال من حالة إلى حالة أخرى[٣٠]؛ وهذا التحول هو في جوهره استعادة *restoration* لحالة إنسانية قديمة؛ أي الصورة الإلهية والعودة من حالة الشر الحالية الدخيلة على الإنسان إلى حالة البر الأصيلة في جوهر الإنسان.

ولكن، قد يتساءل البعض، إنَّ الشر لازال قائمًا والمارد القديم يطل برأسه على البشرية، يبث في قلبها الخوف والرعب

---

[30] Friberg, Analytical Greek Lexicon

ويلقي ببذاره الملوَّثة بفيروس الموت، على أرض الإنسانية وكثيرًا ما تنبت له تلك الأراضي؛ الخطيئة والإثم والتعدي ... والشر!!

فالعالم كله قد وُضِعَ في الشرير!! فكيف لعالم قد وُضِعَ في الشرير أن يحمل على متنه نصرة على الشر؟؟

إننا يجب أن ندرك أولاً، أن أي عمل قام به المسيح، لم يَلغِ عنصر قائم في الحياة؛ فهو لم يَلغِ الزمن ولم يوقف الموت ولم يُلاشي الشر ... فالبشر حتى هذه اللحظة يحيون في عمق الزمن ويختبرون الشر ويجتازون الموت. ولكن فعل المسيح كان هو إبطال سلطانهم على أي إنسان يتمسك بهدب ثوب الرب ويتبعه نحو الأبدية. فالزمن كما تحدثنا لم يتوقف ولكن أعين الإيمان المختونة بدماء المسيح، استطاعت أن تخترق غلالة الزمن لترى من هو وراء الزمن وتحيا بهذه الخبرة الإيمانية في مرحلة الحياة المادية. وهكذا الموت الذي لم يتوقف، إلاَّ أنه أصبح بلا أنياب حقيقية، أمام الرجاء الحي المتجدد في مرحلة ما بعد الموت، في ملكوت الله الباقي أبديًّا. وهكذا الشر المُجنَّح بأجنحة الظلمة والذي يحجب عن الإنسان حقيقة كونه ابنًا للنور، لم يتوقف، ولكنه قُيِّد عن إيذاء أولاد الله، وأصبح المسيح العامل في قلوب تابعيه واقف على الدوام مقابل رياح الشر، ينتهرها بسلطانه الإلهي، حتى لا تَهُب على قارب التلاميذ الرافعين شراعهم نحو الميناء السمائي.

إذًا، فالمسيح بدخوله في عالمنا المادي وخروجه ظافرًا بالقيامة، أصبح هو المتداخل في أي صراع إنساني مع الشر، مُسلِّحًا تلاميذه بالإيمان والرجاء والمحبة، بالصلاة والكلمة الإلهية والإفخارستيا، حتى يستطيعوا أن ينتصروا ويسيروا في موكب النصرة الذي يتقدمه المسيح كالبكر المنتصر، الحامل في يديه راية الخير المرفوعة على خرائب الشر والشرير...

إنَّ الشر هو العائق الأكبر أمام أولاد الله في علاقتهم بالثالوث، فهو يلوِّث القلب، فلا يستطيع معاينة الله. فالشرير يتربص بأولاد الله على الدوام، يهمس في آذانهم بالشرور حتى تجد لها مكانًا في الداخل، ليحوِّل القلب إلى مخزن للشرور، يُخرِج الشرور من كنزه الصدئ، ذاتيًا فيما بعد؛ وهذا ما حذَّر منه المخلِّص بنفسه، حينما قال: "الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات **والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور**" (مت ١٢ : ٣٥).

لذا فقد كان المسيح في تعامله مع البشر لا يهتم بالمظاهر الخارجية للشر، بقدر اهتمامه بجذور الشر النابتة في قلب الإنسان. وهو ما نجده واضحًا في العظة على الجبل؛ حينما كان يُعدِّد وصايا العهد القديم "قد سمعتم أنه قيل للقدماء..."، ثم يُكمِل قائلاً: "أما أن فأقول لكم..." وذلك ليضع أُسس العلاج الصحيح لمرض الشر المستشري في الجسد الإنساني.

فما قيل للقدماء كان بمثابة تعليم أولي للتعريف بالشر من خلال إبراز مظاهره في الحياة ونهي شعب الله أن يمارسوا تلك الأفعال التي تمارسها الأمم، كخطوة أولى، حتى يأتي المسيا ويُبرِئ القلب المُنهَك في صراعه مع الشر، ببلسم الحياة الأبدية وقوة روح الله التي تسكن في المسيحي وتهبه القدرة على انتزاع تلك الجذور المتعفنة المتشبثة بتربة قلبه!!

فالقتل هو مظهر خارجي للغضب الداخلي والزنى هو مظهر خارجي للشهوة القلبية التي تتسلل عن طريق النظر. والانتقام هو مظهر خارجي لغياب المحبة وتصنيف البشرية إلى أعداء وأحباء. والطلاق هو مظهر خارجي للانفصال الذي يسعى للتخلص من التزامات الشركة ... وهكذا نرى أن شرور الإنسان الخارجية هي تعبير منطوق ومرئي ومسموع عن حالة القلب الداخلية. لذا فقد بكَّت المسيح الكتبة والفريسيين الذين كانوا يزينون الخارج ويتركون الموت يأكل في قلوبهم ويحوِّلها إلى مقبرة بها عظام أموات، قائلاً: "أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة وأما **باطنكم** فمملوء اختطافًا وخبثًا (شرًا) καὶ πονηρίας" (لو ١١ : ٣٩)

ويشير القديس **مكاريوس** (عظة ٤٣) إلى القلب كموضع للحرب الحقيقية بين النور والظلمة، فيكتب:

فالقلب فيه أفكار صالحة،
ولكن أنهار الشر تجري دائمًا بالقرب من القلب

وهي تسعى أن تشده إلى أسفل
وتجتذبه إلى ناحيتها،
فإذا مال العقل قليلاً إلى الطيش وإلى الأفكار النجسة،
فإن أرواح الخطيئة تجد مكانًا فيه
وتدخل وتفسد كل الجمال الذي كان للداخل
وتمحو الأفكار الصالحة وتترك النفس خربة

ويضيف قائلاً:

فالقلب صغير
ومع ذلك يوجد فيه تنانين وأسود ووحوش سامة
وكل ينابيع الشر
إلى جانب المهالك والطرقات الوعرة الخشنة،
وفي نفس الوقت يوجد فيه الله نفسه،
والملائكة والرسل،
ويوجد فيه الحياة والملكوت والنور،
كذلك المدن السماوية وكنوز النعمة
كل هذه توجد فيه

إذًا المشكلة تكمن في قلب الإنسان

والقلب καρδία، بحسب المفهوم المسيحي وبحسب شروحات الآباء الأولين، هو الإنسان الداخلي ... الكيان الأعمق في الجوهر البشري ... قدس الأقداس الجديد ... يحتوي الذهن والأفكار والمشاعر معًا ويمتد ليشمل التطلعات والانفعالات وردود الأفعال، وهو ما دعى المسيح أن يقول: "**لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم؟؟**" (مت ٩ : ٤)، فالفكر يصدر من القلب، بحسب

التعليم اليهودي. إلا أنَّ القلب الكتابي بحسب تعاليم المسيح، يعادله الذهن νοῦς في الثقافة اليونانية.

يكتب الأب **منيف حمصي** عن القلب (اليقظة والصلاة) قائلاً:

في العبرية، القلب هو باطن الإنسان،
إنه جوهره وماهيته.
القلب هو جملة المشاعر والأحاسيس الوجدانية ...
القلب إناء الأفكار والذكريات ...
قلب الإنسان هو مركز شخصيته ...
القلب هو مستودع كل كنوز الحكمة والمعرفة ...
القلب إناء الرحمة وميدان النور الإلهي ...
القلب سماء تنسكب فينا فتهبنا عربون الروح ...
إنه قيثارة الروح، يُعزَف عليه وبه ألحان الله ...
وهكذا فالمعركة الكبرى تجري على حلبة القلب،
هناك تُعلَن نصرة المسيح وتقهقر إبليس ...
وفي القلب يكمن ملكوت المسيح.

والقلب الشرير هو مصدر الأفكار الشريرة "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة؛ قتل، زنى، فسق، سرقة، شهادة زور، تجديف" (مت ١٥ : ١٩) وهو مصدر النجاسة "وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر وذاك ينجس الإنسان" (مت ١٥ : ١٨)، لذا فإن شفاء القلب هو شفاء للإنسان وهو بمثابة الحل الجذري لقضية الشر. ولكن كيف يتطهر القلب ويستعيد بريقه وبصيرته مرة أخرى، بترك طرق الشر والالتصاق بالرب؟؟

هناك خمسة محاور أساسية لتنقية القلب وهي:

❖ المحبة من كل القلب

"**وتحب** الرب إلهك **من كل قلبك** ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ..." (مر ١٢ : ٣٠)

❖ حفظ الكلمة في القلب

"والذي في الأرض الجيدة هو الذين **يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح** ويثمرون بالصبر" (لو ٨ : ١٥)

❖ ختان القلب بالروح

"بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي **وختان القلب بالروح** لا بالكتاب هو الختان الذي مدحه ليس من الناس بل من الله" (رو ٢ : ٢٩)

❖ الإيمان من القلب

"لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع **وآمنت بقلبك** أن الله أقامه من الأموات، خلصت. لأن القلب يؤمن به للبر والفم يعترف به للخلاص" (رو ١٠ : ٩ ـ ١٠)

"**لنتقدم بقلب صادق في يقين الإيمان، مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير** ومغتسلة أجسادنا بماء نقي" (عب ١٠ : ٢٢)

❖ الطاعة من القلب

"فشكرًا لله أنكم كنتم عبيدًا للخطيئة ولكنكم **أطعتم من القلب** صورة التعليم التي تسلمتموها" (رو ٦ : ١٧)

"لا بخدمة العين كمن يرضي الناس، بل كعبيد المسيح، **عاملين مشيئة الله من القلب**" (اف ٦ : ٦)

إن تلك المحاور الخمسة التي يجب أن يجاهد فيها المسيحي من أجل نقاوة قلبه، حتى يصير إناءً جيدًا ليحوي اللؤلؤة الواحدة الكثيرة الثمن، المسيح، هي مراحل متداخلة، لا تسير وفق ترتيب زمني ولكنها ضروريات يومية ينبغي أن يضعها المسيحي في آفاق ذهنه حتى لا يصير القلب مسكنًا للآلئ العالم الزائفة.

فالذي يسعى لكي ينتصر على الشر من خلال تنقية القلب، الذي هو مركز الصراع بين قوات النور وأجناد الشر، يجب أن يكون له إيمان تام في قدرة الله الفاعلة في حياته بشكل شخصي. فالإيمان ليس مبدأ مسيحي نعتنقه، بل هو حياة نحياها في وسط عالم يُهدِّد إيماننا ويتحدى رسوخنا في الأبدية، بمداعباته المستمرة لحواس الجسد، لتقوية العيان على حساب الإيمان ... ووسط سهام ملتهبة محمَّاة تتطاير في الهواء بحثًا عن فريسة ليست ممسكة بترس الإيمان "حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة" (اف ٦ : ١٦).

وهذا الإيمان يحتاج، كيما يتشدد ويترسخ في سكنى النور، إلى ختان القلب بشكل مستمر من غلفة العالم التي هي الحياة بحسب الجسد، فالجسد يشتهي ماله، لا يتغذى إلا بالتراب لكيما يضيف إلى القلب غرلة جديدة وهذا يجعل

المسيحي على الدوام، مُطالبًا بإشهار سكين الروح لقطع غرلة العالم التي تكونت حول القلب وإن كانت الدماء والآلام هي النتيجة لذلك!!

وتأتي الكلمة الإلهية كسكين حاد يمسك به المسيحي حتى يختن قلبه على الدوام بقوة الروح والحياة التي تحملها الكلمة المنسابة والمتدفقة من فم الله، لتصل إلى مفارق النفس والروح لتمييز أفكار القلب ونياته، فتقطع بلا هوادة أي فكر به رائحة الظلمة وتمتحن أية نية تؤلِّه الذات لحساب الشيطان!!

ولكن الكلمة لا تصير فاعلة وحادة بدون طاعة لها، من قلب لا يتمسك برؤيته حول المسيرة، بقدر ما يتلقى بالروح خريطة الملكوت فيسير بنور المخلِّص وبإرشاد الروح حتى يعاين الله الثالوث، فيدرك معنى المحبة التي من كل القلب وتدخل تلك المحبة إلى مغائر القلب لتأسر أي فكر إلى طاعة المسيح ولتأسر القلب ليتقدَّس ويتكرَّس للملكوت وللحياة الحقة.

وحينما ينجح المسيحي في جهاده الذي تؤازره فيه النعمة؛ يرى ببصيرة قلبه انهزام الشر وانطفاء فتيلة الظلمة أمام انفجار النور بحضور الثالوث، حينها فقط يدرك قيمة الفداء والخلاص الذي قدَّمه المسيح للكنيسة المجاهدة ويبدأ يعيِّد لا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الإخلاص والحق (١كو ٥ : ٨).

فالحرب هي في الأعماق التي لا يراها أحد والنصرة هناك أيضًا وإماتة العتيق هناك ولبس الجديد هناك أيضًا، هكذا ينبهنا القديس **مكاريوس** (عظة ٤٢) فيقول:

فإنه من الداخل يزحف روح الشر في داخل النفس،
وهو يحاور العقل وهو يغري،
هذا هو حجاب الظلمة، أي الإنسان العتيق
الذي ينبغي أن يخلعه أولئك الذين يهربون إلى الله،
وينبغي أن يلبسوا الإنسان السماوي الجديد،
الذي هو المسيح
إذن فلا يضر الإنسان أو يؤذيه شيء من الخارج
وإنما يؤذيه فقط روح الظلمة الذي يسكن في القلب،
حيًا ونشطًا.
لذلك ينبغي على كل واحد في هذه المعركة
أن يحارب في أفكاره ضد الشر
لكى يضيء المسيح في قلبه

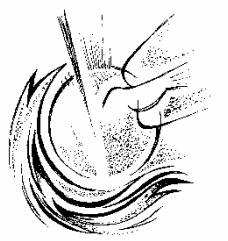

المسيح والحب

لقد تحدثنا عن الزمن والشر كقوى ضاغطة على وجود الإنسان، يصارعهما آملاً في الانفلات من هذا الفخ المترصِّد أبديته، حتى يبدأ في التعرف على الله بالروح والحق. وإن كان الزمن والشر هما عاملان سلبيان في نسيج الوجود البشري، يحجِّمان من القدرات الإنسانية الخيِّرة ويمثلان واقعًا يوميًا يراه الإنسان ويختبره ويئن من سطوته، حتى يدخل في دائرة المسيح، فتذوب روابط الزمن والشر الجاذبة لقلب الإنسان إلى أسفل؛ هكذا سنرى الإنسانية على ضوء مكوِّن جوهري آخر في الكيان الإنساني، ألا وهو الحب.

والحب هو القلب الحقيقي للجسد البشري الذي يحافظ له على قيمته وحيويته ويضفي معنىً ولذةً على المسيرة الإنسانية المرتحلة في قطار الزمن وعلى قضبان اللحم والدم. إنَّ الحب هو فعل سري لا يمكن احتواءه أو رصد حدوده أو وصفه بدقة أو تعريفه بالتمام؛ فهو تيار من الحياة يسري في قلب الإنسان يدفئه حينما تلفحه برودة العالم ويجبِّره حينما تحطمة قساوة العالم ويؤنسه حينما يهجره العالم.

ولعل القيمة والقوة السرية التي يحملها الحب في جعبته، ترجع إلى أنَّ الحب هو جوهر الله ذاته!! "الله محبة"، بتعبير القديس يوحنا الحبيب. وحينما تنفتح قنوات الإتصال الإنساني/ الإلهي تنفتح معها طاقات الغمر من قلب الله فتُرسِل أشعة الحب على الإنسان، فتغمره وتصيِّره إنسانًا بأكمل معاني الإنسانية؛ **فالإنسان الحقيقي هو الإناء الجيد لحفظ خمر المحبة حتى لاتفسد، يسير بها أينما ذهب ليروي البشرية الخائرة على الطريق، فتنتعش مرة أخرى وتعاين الحياة من جديد، فتنساب نيران المحبة فتُلهِب القلب وتُبهِج الحياة.**

والإنسان بدون المحبة لا يمكن تصنيفه إنسانًا وإن كان يسمو على باقي الخليقة وظيفيًا وعضويًا!! ومثل ذلك الإنسان هو أشبه بآلة تأكل وتشرب وتتناسل وتعمل وتنام!! بدون تذوُّق للحياة، **فالحب هو النكهة التي تضفي على أي عمل طعمًا حقيقيًا.**

ولكن المحبة بمعايير العالم تختلف عن المحبة بمعيار المسيح؛ فالأولى كما أسلفنا هي محبة إيروس ومحبة فيليا وهي دائمًا ملوثة بالأنا وبالأخذ، بينما ـ في المقابل ـ يضعنا المسيح على أعتاب محبة الأغابي، كمدخل لكل فضيلة وكل علاقة حقيقية صادقة مع الله والناس، في ضوء الأبدية.

فالإيروس Ερως كان دائمًا ـ عند اليونان ـ الإله الذي له سلطان على الجميع وليس لأحد سلطان عليه[٣١]. فهو حالة من

---

[31] Eur. Fr., 132, Nauck

التغيُّب عن الوعي والواقع والمنطق في ظل نشوة تأخذ الإنسان إلى أفلاكها الخاصة، بحسب رؤية أفلاطون[٣٢]. هو الإله الحاضر في كل معبد يُمَارَس فيه البغاء. إنه الإله الذي يسلب الإنسان الاختيار والحرية والإرادة ومع ذلك يجد الإنسان في سلطانه نشوة. وقد حاول كلاً من أفلاطون وأرسطو ومن بعدهم الأفلاطونية الحديثة (وبالأخص مكسيموس من ثياتيرا)، تحرير معنى الإيروس من قيود الحس والنشوة ولكنهم فشلوا على المستوى الشعبي الذي أصبح إرثًا تتناقله الأجيال. وذلك على ما يبدو، للممارسات الخاطِئَة التي كانت تجري تحت راية الإيروس السوداء، بالإضافة إلى إلباسها ثوب الألوهة والربوبية مما جعل من العسير تغيير وجهتها المرتبطة بالشهوة العمياء.

بينما نرى الفيليا Φιλια في حسها الأولي ـ عند اليونان ـ تعني المساعدة والمعونة *to assist/ to help* ويمتد المعنى في إتجاه الملكية، لتعني ما يخص الإنسان *belonging to* أو ما يلائم *proper to* ويناسب الإنسان.

والفيليا بحسب تصنيف اليونان هي: حب الآباء للأبناء[٣٣]، حب السيد للعبد[٣٤]، حب الوطن والمدينة[٣٥]، حب الآلهة للبشر[٣٦]، حب الأصدقاء، حب الزوجان لبعضهما البعض. إلا

---

[32] Phaedr., 237 *ff*., 242 *ff.*
[33] Eur. Herc. Fur., 634
[34] Hom. Od., 14, 146; 15, 370
[35] P.oxy., I, 41, 30
[36] Hom. I1.,197;16,94; od.,15,245f.

أنَّ الفرق بين الفيليا والأغابي هو الفرق بين الإعجاب *to like* والحب بمشاعر فياضة وتعلُّق شديد.

وعلى الجانب الآخر نجد أنَّ الأغابي Αγαπη ـ في المجتمع اليوناني قبل المسيح ـ تعني التقبُّل *to receive* والتحية *to greet* والتكريم*to honor*[٣٧]. ولم يستخدم اليونان في كتاباتهم كلمة الأغابي كثيرًا. فلم يجتذبهم البريق العذري الباذل لتلك الكلمة قدر ارتباطهم ببريق الشهوة المتفجِّر من الإيروس؛ ذلك البريق الظامِئ لتحقيق ذاته ووجوده على حساب الآخرين.

إلاَّ أنَّ كلمة الأغابي تم اكتشافها من جديد في المسيح الذي جسَّدها لنا مثالاً وحياة. وكأنها كانت مصونة في خزانة اللغة، لم تتدنس ولم تُستهلَك ولم تُبتذَل، حتى يأتي المسيح ويتبناها في رسالته الخلاصية كمبدأ أساسي للحياة الجديدة التي تتطلع للملكوت السماوي.

يخبرنا القديس يوحنا عن المحبة قائلاً: "نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحب الأخوة" (١يو ٣: ١٤). ولعل نغم تلك الكلمات يحمل مفهومًا مختلف تمامًا عن الحب، الذي طالما سمعناه ورأيناه يتجول في طرقات الحياة الأرضية. وكأنها تعيد صياغة تعريف الحب من جديد وترسمه لوحة بألوان المشاركة المضحِّية بين البشر. فهي تنقل مفهوم الحب نقلة

---

[37] Gerhard Kittel& Friedrich, *Theological Dictionary of the New Testament*, Eerdmans Publishing Company, Grand Rapids, Michigan, Αγαπη

نوعية جديدة، إذ تربط لنا الحياة بالحب وتخلّصه من شوائب النفعية والشهوة، في إشارة واضحة إلى أن الموت ما هو إلا غياب الحب.

لقد تعلمنا منذ نعومة أظافرنا أنَّ الحياة قد أُظهِرت لنا في المسيح يسوع وأننا انتقلنا إلى الحياة يوم آمنا بالمسيح ربًا وإلهًا وملكًا متوجًا على القلب والنفس والحياة. وقد تعلمنا أيضًا أن الثبات في المحبة هو الذي يضمن لنا الثبات في الله "الله محبة ومن يثبت في المحبة، يثبت في الله والله فيه" (١يو ٤: ١٦)، إلا أنَّ كلمات القديس يوحنا تضعنا أمام بُعد جديد في غاية العمق، يربط محبة الله بمحبة الآخرين، بالحياة.

فبمجيء المسيح متجسدًا، كان هذا الفعل هو أول بادرة من نور تشرق في أفق الإنسانية؛ ففي المسيح، تَعرَّفنا على ذلك الكائن الرقيق، الأغابي، الذي يلتمس له مكانًا حقيقيًا في القلوب البشرية؛ فتحركاته بذل وكلماته إيثار ووجهته الآخر وردائه الإخلاء ويداه عطاء ...

فالأغابي قد أطلَّت على البشرية لأول مرة في المسيح يسوع. فلقد كان التجسد الإلهي أول فعل أغابي تعاينه الأعين البشرية وهي مندهشة، بقدر إدراكها النسبي، لتجسد الله!! والأغابي التي رآها الإنسان في التجسد، هي أغابي الخروج من الذات من أجل الآخر وإن كان هذا الآخر هو الإنسان؛ خليقة الله الساقطة!! وهنا نرى الأغابي ليست فقط محبة متنازلة إلى

أقصى الحدود ولكنها أيضًا محبة ليست مشروطة ببر إنساني أو مجد إنساني للتدخل!!

وبتجسد المسيح، تساءل الإنسان؛ ما الذي يدفع إلهًا مستريحاً في سمائه، ممجدًا من ربوات الملائكة النورانية، لارتداء أثمال بالية خاطتها أيدي البشر لتستر عري فضيحتها يوم سقطت؟؟ وما الذي دفع الساكن في النور الذي لا يدنى منه لالتماس مسكنًا لولادته ولالتماس موضع على أرضٍ قد غلَّفتها الظلمة دهورًا؟؟ وما الذي دفع رب الجنود لاحتمال تشككات البشر فيه ومحاولاتهم المستمرة للإيقاع به؟؟ وما الذي دفعه ليقبل إهانة مخلوقاته وليحتمل قساوة قلوبهم؟؟ ما الذي دفعه لقبول الجلد والهزء والسخرية واللطمات المتواترة من أيدٍ ترابية؟؟ ما الذي دفعه للسير في طريق الموت، معانقًا الصليب؟؟ ما الذي دفعه لمثل تلك الحياة التي يرفضها أوضع البشر شأنًا؟؟ وما الذي دفعه لتلك الميتة البشعة والمُخزية الموسومة بالعار؟؟

إنه الحب ... الأغابي

هكذا (حب الأغابي) أحب الله العالم

لم يدرك العالم قبلاً حبًا مثل هذا، لذا كانت دهشة العالم وحيرته شديدة ولسان حاله يردد مع اليهود "لم نرى مثل هذا قط...". فالحب الإنساني دائمًا ما يتحرك نحو الآخر بتثاقل وبطء، دائرته تقتصر على الأحباء، حدوده لا تبلغ حتى الألم ولا تمتد لتجود بالحياة. فلقد اعتاد البشر ـ في أغلب الأحيان ـ

التحدُّث عن الحب بل والتغني بالحب وليس تجسيده واقعًا بالخروج من الذات نحو الآخر. لذا فلم يره البشر سوى استهلاكًا للآخر، يسعى لالتهامه وهو متسربلاً باللذة وسكرانًا بالذات!! بينما الحب الإلهي الذي حمله لنا المسيح في جسد بشريته، هو حب لكل الخليقة، بلا حدود ولا قيود ولا شروط ولا ضوابط، فهو حب بملء معنى الكلمة.

إلا أنَّ الإنسان كان في حاجة لأن يرى الحب منتصرًا وليس مصلوبًا!! فكانت شمس القيامة التي أرسلت خيوط النور الأولى من خلف الصليب، هي الرد الإلهي للإنسان الذي يريد أن يبدأ في التعرُّف على حقيقة المحبة ولكن قدميه المرتعشتين من الخوف كانتا لا ترى سوى ظل الصليب، فيزداد تردده ووتتزايد مخاوفه!!

وبدأ الإنسان في ثبيت وجهه نحو المسيح القائم وبدأ يخطو أولى خطواته في الحب مقتفيًا آثار يسوع المنطبعة في الزمن وعلى التراب. وكلما سار على دروب المحبة، كلما ازدادت جراحاته من العالم، بينما يزداد بريق القيامة في عينيه توهجًا ويتحوَّل في قلبه إلى أشواق متأججة نحو اللّه والآخرين.

وإذ بالإنسان المولود على أيدي المحبة يستشعر الحياة تنهض من جديد، في قلبه، من قبرها الذي مكثت فيه زمانًا طويلاً وأصبحت صلاته أينما سار في الحياة، هي:

اعطني يارب نعمة الحب؛

الحب المجروح من العالم والمعصوب منك وحدك،
الحب الذي لا يميز القريب والغريب
ولا يفرِّق بين عدو أو صديق،
الحب المنساب حيًا
ليفيض ويغمر أي أرض بشرية أينما حلَّ،
الحب الذي يبارِك وإن شُتِم،
الحب الذي يترفق على الإناء البشري الهش
ولا يبصر ضعفاته،
الحب الذي لا يتعالى
بل يفترش دائمًا موضع أقدام الآخرين،
الحب الذي يهجر الذات بلا رجعة،
الحب الصامت الفاعل،
الحب الوديع الجريء،
الحب المصارع أفكار البغضة
والمنتصر على حجج المنطق،
الحب المصلوب بالصبر،
الحب المحتمل الإساءة،
الحب المصدِّق للوصية،
الحب المترجي شركة المخلِّص،
الحب الذي لا ينهار لأنه مؤسس على صخر الدهور،
يسوع، ذبيح الحب

في المسيحية، نحن لا نحب بمقتضى العاطفة المجرَّدة؛ فالعاطفة تُحدِّد صلاحيات المحبوب، كما أنها تعمل التفرقة بين البشر على أساس الدم والقربى والعقيدة والوطن والجنس

واللون ... مما يفقد الحب خاصيته الأولى والفريدة، أي المجانية والفيض. وقد أكَّد المسيح على هذا المفهوم في الوصايا الجديدة التي ألقاها على الجبل حينما قال "احبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم" (مت ٥: ٤٤) واستطرد في شرح ذلك المفهوم قائلاً: "لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم، أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك" (مت ٥ : ٤٦) وكأنه بهذا المعنى يرفعنا خطوة على درب الكمال، يبتعد بنا عن المبررات الأرضية للحب، المستندة على الهوية والقومية سواء في شكلها المحدود؛ العائلي أو المكاني، أو في صورتها المتسعة؛ الظاهرة في العرق واللون ...

إنَّ المسيح حينما كان يضع بذور الحب في قلوب المؤمنين بإسمة كان يلبسها ثوب البنوة!! فقد كان تبرير المسيح لهذا النوع غير الاعتيادي من المحبة، أننا أبناء الآب "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (مت ٥ : ٤٥). فالبنوة التي وُهِبنا إياها مجانًا بالخلاص والفداء الذي أتمَّه الله من أجلنا نحن المستوطنون أديم الأرض، تفترض فينا التميُّز عن باقي البشر!! تميُّز بالقدرة على الموت من أجل الآخرين.

فالبنوة قد شكلتنا من جديد بحسب صورة الآب السماوي الذي يتنفس حبًا لكل الخليقة، بالرغم من حالتها ومواقفها الراهنة تجاهه!! فكيف يمكن لنا أن نَدَّعي أننا أبناء إن لم

تكن صورة الآب ظاهرة ومتجسدة في محبتنا تجاه كل البشر؟! [فالمحبة المقدسة هي مشابهة اللّه على قدر ما يستطيع البشر]؛ هكذا يعلن القديس يوحنا السلّمي.

فالبنوة التي نلناها باشتعال شرارة القيامة في قلوبنا هي قبل كل شيء مسؤولية قد وُضِعَت على أكتافنا يوم صرخنا قائلين: "أبانا الذي في السموات ..." وهذه المسؤولية تجعلنا على الدوام في حالة خروج من الذات، بمشاعرها ورغباتها وتصنيفاتها وحدودها وكرامتها!! نحو الآخرين، دون أدنى نوع من التمييز. فالمقولة الأفلاطونية القائلة بأن؛ [الحب أعمى] هي أصدق تعبير عن الحب المسيحي الذي لا يتفرس في استحقاق الآخر في الحب، بقدر ما يندهش على الدوام من قدرة الآب على حب كل إنسان بلا شروط ولا قيود، فتصير مثل تلك النظرة العلوية بمثابة قوة دفع للمسيحي للخروج من ذاته نحو الآخرين وهو حامل في جعبته تلك الذات، التي يخرجها كل يوم، ليذبحها بسكين الحب، فتنبعث منها رائحة طيب تتطاير وتنتشر وتصير رائحة حياة للكثيرين. وإذ بتلك الذات تحيا من جديد ولكن في ثياب من نور، و[مكتسية بأرجوان الروح]، بتعبير القديس مكاريوس الكبير ولها صورة يسوع، مليكها الأبدي.

ولكن يجب علينا أن ندرك أن ربط البنوة بالمحبة هو في الأساس علاقة جوهرية قائمة أزليًا بين أقانيم الثالوث. فلقد أعلن المسيح قائلاً: "الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده"

(يو ٣ : ٣٥) ويضيف في موضع آخر قائلاً: "لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله وسيريه أعمالاً أعظم من هذه لتتعجبوا أنتم" (يو ٥ : ٢٠) وكأنَّ كلمة (يحب) هي دائمًا همزة الوصل بين الآب والابن والروح القدس، فالحب الكائن بين أقانيم الثالوث هو الصورة والنموذج والمثال الذي يسير البشر على هدي ضيائه، في مسيرة الحب هنا على الأرض. فإن كنَّا أبناء بالحقيقة (بالنعمة) يجب أن نحمل في قلوبنا قبسًا من ذاك الحب بين الآب والابن (بالطبيعة) وإلا كيف نجرؤ أن نحمل لقب أبناء!!

ولقد أكَّد القديس يوحنا على هذا المعنى، إذ يقول: "أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضًا لأن المحبة هي من الله وكل من يحب فقد وُلِدَ من الله ويعرف الله" (١يو ٤: ٧) وهنا يكون الدليل الأقوى على مسيحيتنا وبنوتنا هو الحب. **وكأن جرن المعمودية الذي تم إعلاننا فيه كأبناء ومسيحيين، يحوي مياه الحب الأزلي التي يقدسها الروح القدس، فتمتزج بكياننا الإنساني حينما نغطس داخلها، فنخرج من تلك المياه وقد صارت فينا نبعًا حيًا، يفيض بقدر وعينا بوجوده في قلوبنا ويتدفق بقدر انفتاح قلوبنا للروح، الذي يشهد لبنوتنا، بفتح مزلاج القلب المُغلَق بذكرى السقوط، فتندفع مياه الحب في كل صوب وجهة بلا قدرة على التمييز والتوجيه!!**

ولا يكتفي القديس يوحنا بربط الحب بالبنوة ولكنه ربطه أيضًا بالإيمان بيسوع ربًا ومسيحًا؛ "كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد وُلِدَ من الله وكل من يُحِب الوالد يُحِب المولود منه أيضًا" (يو ٥ : ١).

فالإيمان بيسوع هو ميلاد جديد للبشرية وهذا الميلاد بالضرورة يحمل معه حبًا للآب الذي قبلنا بنينًا ولكن هذا الحب نحو الآب ليس حبًا مجردًا نعلنه في كلمات ونصوغه في عبارات تنم عن مشاعر طيبة ولكنه حب متجسد في محبتنا لخليقته (أبنائه) كأقوى دليل على صدق محبتنا له.

وعن تلك المحبة الأفقية بين البشر يكتب القديس **أنطونيوس** في رسالته الخامسة قائلاً:

حقًا يا أبنائي،
إن الحب الذي بيني وبينكم ليس حبًا جسديًا
لكنه حب روحاني إلهي

فالحب الذي ارتشفناه من الكأس المقدسة الحاوية دماء المحبوب، يغيِّر طبيعة قلوبنا من المحبة الجسدانية إلى المحبة الروحية الخارجة من الله ذاته. وهذا الحب له قدرة على الدوام والاستمرارية أكثر من أي حب آخر بين الإنسان وأخيه.

ويعطينا **ماراسحق** السرياني السبب الذي من أجله نحب الآخرين أكثر من الأشياء، فيقول (الميمر الثالث/ ٣٠):

لا تستبدل محبة قريبك بحب الأشياء،
لأن الذي هو أشرف من الكل مخفيٌ داخله

فالفرق بين الشيء والشخص هو حضور الله في الشخص. لذا فالإنسان الذي يحيا بالروح وقد استقرت على أغصان قلبه طيور المحبة الإلهية، هو الإنسان الذي يستطيع أن يرى الله في الآنية

البشرية، مهما كانت هشة وضعيفة ومتسخة!! وحينما يستطيع هذا الإنسان أن يرصد الله في الآخر، حينها يرسل أناشيد محبته الباذلة على الدوام، تلك الأناشيد التي تحمل نغمة أبوة الله، فتسْبَح حتى تجد لها مكانًا في قلب هذا الآخر وتضمِّد جراح عزلته بتوجيه قلبه إلى ذاك الحب السرمدي المترقب الإنسان على الدوام؛ إنه حب الله الثالوث للإنسان.

فالمسيح بتجسده قد نقل البشرية نقلة نوعية في الحب، بتحرير الحب من هاوية الشهوة والامتلاك، ليصبح حبًا يجد الفرح الحقيقي والمنشود والدائم في الآخر، سواء كان هذا الآخر؛ الله أو الإنسان. فالآخر هو موضوع الحب الجديد والوصية الجديدة والعهد الجديد والنعمة الجديدة والحياة الجديدة.

لذا يكتب لنا القديس **مكاريوس** بقلب ملتهب تشهد له حرارة الكلمات، قائلاً (عظة ٤٣):

المسيحيون يشتعلون ويضيئون من طبيعة واحدة،
هي النار الإلهية، أي ابن الله،
ولهم مصابيحهم مشتعلة في قلوبهم
وتضيء قدامه،
بينما هم يعيشون على الأرض كما أضاء هو

إنها النار الجديدة التي ألقاها المسيح على الأرض. نار الحب المعانق للصليب، المتشوق للموت، الرافض للشهوة والملتصق

بالثالوث. إنها النار الجديدة التي تشتعل في قلوبنا بقدر تشبهنا بيسوع، ابن الله وبقدر تشبثنا بثوبه على أعتاب قلوبنا، حتى يبقى ويرسل طيف النار السماوي، فنشتعل حبًا ونُشعِل العالم حبًا ... حينئذ سنضيء ونصير أنوارًا في العالم، كما هو نور العالم.

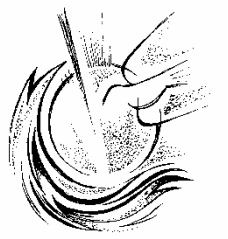

المسيح و الحرية

الحرية ... تلك الكلمة ذات النغم العذب الذي يشدو تحت نافذة القلب الأسير، فيبهجه بنسمات انطلاق تهيم على وقعها النفس. تداعب أحلامها فتأخذها إلى عالمٍ آخر حيث لا قيود ولا حدود ... ولكن سرعان ما يجف منابع النغم المترنم بالحرية أمام واقع يعتصر كيان الإنسان !!...

إنها الكلمة التي غيَّرت مسار التاريخ وعدَّلت من خرائط الشعوب ... ألهمت جيوشًا وملَّكَت قوادًا وخلَّدت أبطالاً، اشتهوا الحرية فابتاعوها بدمائهم!!

إنها الميناء الذي لا يكف البشر عن مصارعة الأمواج ومغالبة الرياح، حتى يستلقوا عليه ولو للحظات قبل أن ينتقلوا إلى الحياة الأخرى.

وكما رأينا، لقد تبارى الفلاسفة في رسم ملامح الحرية الغامضة؛ فكانت رفيقة الوجود عند البعض وكانت رفيقة الفكر عند آخرين وكانت أليفة الفعل عند الكثيرين!! إلا أنَّ ملامحها ازدادت غموضًا على أقلام الفلاسفة وكأن فرشاة الفلاسفة التي داعبت الأوراق لتجسِّد الحرية، لوحةً، لم تجسِّد سوى خيالهم وأفكارهم، بينما بقيت الحرية سرًا لم ينكشف

للمنطق بعد ولم يَصِح أحد صيحة المعرفة اليقينية [لقد وجدتها!!]، فهي دائمًا ما تنساب كقطرات المياه من بين الأيدي حينما نُطبِق عليها ونظن أننا امتلكناها.

هنا ويستوقفنا السؤال الجوهري الذي يعنينا بالأساس؛ هل يمكن للإنسان أن يصير حرًا بملء معنى الكلمة؟! وهل يمكنه أن يحطِّم قيود الحياة والقدر والمصير؟!

يجب علينا أن ندرك أولاً أنَّ الإنسان مخلوق، لذا فهو دائمًا نسبيٌ في كل أفعاله ونوازعه وملكاته بل ووجوده، فهو يستمد وجوده من آخر (الله) وبالتالي يستمد محيط حريته من الله. فالإنسان لا يمكن أن يوُصَف بأنه كائن حر، إذ هو أسير الجسد والزمن والموت على المستوى الحسي، كما أنه أسير الحيرة والتساؤل والسر على المستوى الباطني، بالإضافة إلى كونه لا يمتلك حرية إتخاذ قرار ولادته أو موته ... منشأه أو عائلته ... لونه أو جنسه ... **فهو سيظل أسيرًا لأنه إنسانًا ولكنه يبقى الأسير الذي يتحرر. فالإنسان الحقيقي الساعي إلى الحرية هو في حالة تخلُّص من القيود وانطلاق نحو الحرية.**

فالحرية لا تُفهَم إذًا، أنها حالة يمكننا الوصول إليها هنا في الحياة الأرضية ولكنها فعل دائم دؤوب يسعى على رجاء أن يُدرِك، هناك في الحياة الأبدية، التي ستشهد نقلة نوعية للإنسان بالتحرر من الزمن والموت والجسد والخطيئة والشر بل والتساؤل ...

ولكن قبل أن نسعى لمعرفة سقف الحرية الإنساني، يجب أن نفهم مما نتحرر وكيف نتحرر...

فالحرية في معناها الشمولي المتسع هي إدراك الحق والحياة بتناغم بين ما نؤمن به وما نفعله. ولكن الحرية تتداخل في تفاصيل حياتنا وتضعنا في مواقف نتساءل فيها، هل أنا حر في اتخاذ ذلك الموقف أم لا؟؟ وهل الحرية تنحصر في الـ(نعم) والـ(لا) التي ينبغي أن أفصل بهما في مسلسل الحياة اليومي؟؟

الكثير يرون أن الحرية هي القدرة على القبول والرفض؛ فهي بمثابة التخلُّص من القيود التي تحكُم قراراتي وأفعالي. وآخرون يرونها القدرة على التفاعل مع المواقف المختلفة للوصول إلى مصلحة شخصية في نهاية الأمر وإن تطلَّب الأمر الكذب وإقرار ما لست أؤمن به. بينما يرى آخرون أنها القدرة على التكيُّف مع أي وضع وفي أي مكان من خلال الصمت وعدم اتخاذ أي قرار، أي أنها حالة سلبية حتى يستطيع الإنسان ألا يُقيَّد برأي أو توجه أو مناصرة مبدأ!!

ولكيما نقترب من هذا السر (الحرية) سنفتح صفحات الإنجيل الرابع؛ إنجيل القديس يوحنا وسَنسْبَح وسط كلمات الحياة، حتى نلاقي الحرية كما أعلنها لنا المسيح، فهو وحده الحر المطلق الحقيقي وهو الوحيد القادر أن يروي ظمأ نفوسنا التي تترجي قطرة حرية لتحيا.

لقد قال يسوع للذين آمنوا به:

"إن ثبتم في كلامي،
فبالحقيقة تكونون تلاميذي،
وتعرفون الحق والحق يحرركم
"καὶ ἡ ἀλήθεια ἐλευθερώσει ὑμᾶς" (يو ٨ : ٣١ ـ ٣٢)

ولكن الحق (الأليثيا) عند البشر نسبي؛ فقد سأل بيلاطس المسيح؛ ما هو الحق؟. فما يراه البعض حقًا يراه البعض بُطلاً، لأن ضمائر الناس مختلفة المرجعية، باختلاف البيئة والثقافة والتراث الديني. لذا أراد المسيح أن يوحِّد الضمائر حول كلمته، حتى تتعرف من خلالها على ملامح الحق وملامح البُطل. لذا كانت ضرورة الثبات في كلمة الرب (إن ثبتم في كلامي)؛ أي الثبات في الوصية، حتي يتجلى الحق في قلوبنا ويشرق بنور المعرفة الصادقة على أذهاننا ويجدد مفردات معرفتنا الذاتية، لنستطيع أن نُدرِك الحق ونشهد به. فلو ظل الحق ضبابيًا في عقولنا وقلوبنا كيف سنتحرر من أخطار المسيرة وكيف سنتحرر من الخوف من الأعداء المتربصين بنا، الذين يرتدون ثياب شبه الحق لخداعنا وتضليلنا وتغيير وجهتنا في رحلة الحياة.

لقد كانت إحدى حلقات خطيئة آدم هي **إرادته الذاتية لمعرفة** الخير والشر والتي جعلته يتوه وسط الخير والشر المتلوِّن بلون الخير أحيانًا. فالشر كالحية التي لها القدرة على تغيير جلدها حسب الوسط الذي تحيا فيه. وكانت النتيجة فقدان الحرية،

لأنه فقد المعرفة النقية الواضحة لأصله وغايته، حينما فقد الحق وغرق في خبرات الشر، فتزايدت القيود على روحه الهائمة على وجهها بحثًا عن مخرج من مأزق معرفة الخير والشر. لذا فإن المسيح ـ في العهد الجديد ـ يعلن أن علينا أن نعرف الحق فقط، الجانب المضيء فقط، الجانب الإيجابي فقط، حتى نصير أحرارًا. وتلك المعرفة لا تُفهَم في إطار المعرفة الذهنية العقلية وإلا وقعنا في فخ الغنوسية من جديد، **فالمعرفة المسيحية هي معرفة فاعلة متجسدة، لأنها تتبع إله متجسد.** فبقدر إدراكنا للحق ببصيرة القلب وخضوع العقل وبقدر تجسيده في حياتنا وأفعالنا، بقدر انفلاتنا من حبائل هاوية العبودية التي تُدمي وجودنا كله.

فالحرية إذًا، تنبع من وعينا وتجسيدنا للحق الخارج من فم الله بالوصية. فالكلمة الإلهية بها قدرة للنفاذ إلى أعماق الإنسان لتحريره ولكن يبقى على الإنسان أن يفتح الباب للكلمة ويحتمل نصل الكلمة الباتر للشر والبُطل ويرتدي رداء التلمذة كل يوم تحت سلطان الكلمة الإلهي، حتى تنقش في وجدانه مبادئ الحق، التي إن صارت ناموسه، صارت حريته.

ويحدثنا القديس بولس في رسالته إلي أهل رومية عن مفهوم العبودية ومفهوم الحرية، فيقول: "أنتم عبيد للذي تطيعونه، إما للخَطيئة للموت أو للطاعة للبر" (رو ٦ : ١٦). فهو يرى العبودية في الطاعة والخضوع، فإن كان الخضوع للشيطان والخطيئة،

نصبح عبيدًا للخطيئة وإن كان الخضوع للمسيح والطاعة للوصية، نصير عبيدًا للبر.

هنا يري القديس بولس أن للحياة وجهتين؛ إما عبودية للخطيئة أو عبودية للبر. ولكن أين الحرية بينهما، فكلاهما عبودية وكلاهما قيود وكلاهما حدود للإنسان، هكذا يفكِّر البعض!!

ولكن إن أردنا تحليل عبودية الخطيئة؛ نجدها في شكلها الظاهر تحرُّر من القيود والأخلاق والنُظُم والثوابت الإنسانية والمجتمعية وكأنها مطرقة تهوي على البناء الإنساني لتحرره من إنسانيته!! إنها تحرُّر يصحبه نشوة ولذة تدوم قصيرًا ولكن يرافقها على الدوام فراغ داخلي يظل مرافقًا للخطيئة. وهذا الفراغ يحرم الإنسان من فهم رسالته في الحياة وما بعد الحياة، فتموت نبتة الرجاء في الغد ويصل الكثيرون إلى حد اليأس والانتحار.

وعلى الجانب الآخر قد ينغمس الإنسان في الشر والخطيئة فلا يفكر ولو للحظة في الغد ولا يستطيع أن يحتمل مواجهة النفس وملاقاتها وحيدًا، لذا يسعى بشتى الطرق أن يظل وسط ضجيج[٣٨] حتى لا يجبره الصمت على ذلك اللقاء الذي يرهبه بل

---

[٣٨] حتى الضوضاء تكون عزاءً بالنسبة للإنسان الوحيد (نيتشه)

ويرعبه!! والنهاية المحتومة لمثل تلك الحياة هي الهاوية حيث سيد تلك الحياة (الشيطان) يترقب مطيعيه وعبيده.

هل يمكن أن تكون تلك حرية يصبو إليها الإنسان،
أو يسعى لنوالهـــا؟؟!!

وفي المقابل، نجد أن عبودية البر أو المسيح، يصاحبها وصايا وسلوك يقيِّد الإنسان، يجعله أسير لأخلاق وسلوكيات وتطلعات فوق مادية، إلا أن تلك العبودية تتناغم مع الحياة الإنسانية، لأنها عبودية تسعى للآخر (الله/ الإنسان) دائمًا بالحب، فهي تخلق مجتمعًا أفضل على كل الأوجه "لا تصيِّروا الحرية فرصة للجسد، بل بالمحبة اخدموا بعضكم بعضًا" (غل ٥ : ١٣). هي عبودية يصحبها ألم رفض الغواية والشهوة، ألم المعركة مع قوات الظلمة التي تحيط بالنفس، إلا أنه ألم قصير المدى ويتخلله تعزيات النعمة المفرحة وهذا الألم ينتج عنه ملء داخلي وبصيرة واستنارة وسلام وتحرر قلبي فائق للوصف، يجعل الإنسان يدرك معنى الحرية الحقيقية في العبودية للمسيح والطاعة لكلمته المحيية!! فتصير حياة ذلك الإنسان مرادفة للفرح والبهجة واليقين بقيمة الحياة والرسالة التي يحققها هنا على الأرض من أجل الملكوت العتيد. إنَّ تلك العبودية تجعل الإنسان في تصالح مع نفسه ومع الآخرين، فيستعيد رويدًا رويدًا بهجة الصورة الأصلية التي خُلِقَ عليها ويشتاق إلى تحقيقها بالوصول إلى المثال، يسوع المسيح، نبع الحرية الأوحد والأصدق.

والنهاية السعيدة لمثل تلك الحياة، أنغام أبواق تشدو بسكنى النور وأحضان إلهية تنفتح لمعانقة النفس التي قبلت شكل العبودية للبر ولكنها نالت الحرية الحقيقية في الثالوث الأقدس.

إذًا، فالحرية كما أعلنها لنا الكتاب المقدس، هي حرية جوهرية وليست شكلية، دائمة وليست لحظية، متحركة وليست ثابتة، صادقة وليست مزيفة، ساعية وليست مكتفية، مجاهدة وليست مرتخية، بنَّاءة وليست هدَّامة، مجسدة للمبادئ وليست مطنطنة بشعارات، نابعة من الله الحر وليست نابتة من الشيطان المستعبد.

فالحرية هي تحرُّر من قيود كل ما هو دخيل على الإنسان؛ كالشر والخطيئة والموت، حتى يستعيد الإنسان بلورته النقية التي تعكس له حضور الله في قلبه ويعود إلي أصله البهي البسيط النقي قبل دخول جرثومة الخطيئة إلي قلبه.

والحرية في المفهوم المسيحي، لا يمكنها أن تتحدث عن الإنسان بمعزل عن الله، كما كان يحاول الفلاسفة. فالحرية ليست قيمة إنسانية مطلقة ولكنها قيمة جزئية تكتمل باكتمال النضج الإنساني من خلال علاقة حية صادقة مع الله الثالوث. وهذا الذي دفع يسوع أن يقول لليهود: "فإن حرركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحرارًا" (يو ٨ : ٣٦). فالبشرية لا يمكنها أن تنال الحرية بعيدًا عن عطية الابن، أقنوم الكلمة. فهو الذي حرر الإنسان من سلطان الزمن والموت والشر، كما أسلفنا. لذا فإن حرية البشرية ستبقى مرهونة بقبول المسيح

سيدًا للحياة. وطالما يسعى البشر للحصول على حرية فوضوية سيظلون عبيدًا لثالوث العالم؛ الزمن والموت والشر. وسيظل رئيس العالم المُقيَّد بقيود دهرية، يغذي طموحاتهم في التخلُّص من قيود الحياة الجديدة النابتة من أسفل خشبة الصليب ... أي التخلُّص من الحرية!!

لقد كان **نيتشه** يعلِّم بلسان زرادشت قائلاً:

أناشدكم يا أخوتي أن تظلوا أوفياء للأرض!![٣٩]

وكأنه بذلك يقول، فلنُستعبَد للأرض ولنتحرر من السماء ... فلنُستعبَد للزمن ونتحرر من الأبدية ... فلنُستعبَد للخطيئة ونتحرر من البر ... فلنُستعبَد للعبودية ولنتحرر من الحرية!!

إنها دعوة للعبودية في أقصى وأقسى صورها، تطرح النفس في حيرة مؤلمة هي لهب من الجحيم عينه، فهي تفرِّغ الإنسان من أقدس قيمة تجدد وتنشط قواه حتى يستمر في الحياة؛ ألا وهي الرجاء في نُصرة على قيود الحياة الأرضية التي تعرقل انطلاق الروح. وليس عجيبًا أن يقول **نيتشه** نفسه فيما بعد:

إنني أشتاق إلى الكائنات البشرية وأبحث عنهم،
ولكنني دائمًا أجد نفسي فقط،
مع أنني لم أعد أشتاق إلى نفسي.
لم يعد أحد يأتي إليَّ،
ولقد ذهبت إليهم جميعًا فلم أجد أحد ...

---

[39] Nitzsche, *Thus Spoke Zarathustra*, Sec. 3, p. 125

ها هي الأرض الوفية التي كرَّس لها نيتشه حياته مقاومًا الأبدية، قد تركته وحيدًا مريضًا وفي نهاية حياته تم نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية في (ينا بألمانيا) وهو يقول:

الآن لم يعد أحد يحبني،
فكيف أستمر في حبي للحياة!!

يا لوفاء الأرض لتابعيها الذين أخلصوا لها وتحرروا من الحرية حتى يصيروا عبيدًا لها، مطلقين على أنفسهم لقب أحرار!!

إنها نفس التراجيديا تتكرر على مسرح الحياة بشكل يومي والناس مازالت تصدق خدعة الحرية بعيدًا عن الله. ومازال الشيطان يروِّج لبضاعته على لسان تابعيه وهو يسخر من عقول البشر القاصرة عن قراءة المأساة الناتجة عن فصل التاريخ الإنساني عن الله الحقيقي (وليس الله الذي اختلقته مسيحية العصور الوسطى في الغرب، لتُخيِّر الناس بين عبوديتين؛ عبودية العالم وعبودية القوانين الدينية!!).

إن قلب القديس بولس يصرخ في العالم المسيحي قائلاً: "فاثبتوا اذًا في الحرية التي قد حررنا المسيح بها" (غل ٥ : ١). فالمسيح قد حررنا بدمه المسفوك على الصليب وتساقطت دماؤه على أغلال الشيطان الحديدية فأذابتها. أشرق ضوء قيامته على مغارة الموت المظلمة فحررت أسرى الظلمة بحبائل النور المرسلة من جسد المسيح القائم. إنها الحرية التي طالما أردناها لنهزأ

بالعالم الحاضر الموضوع في الشرير ... ولكن الناس أحبوا الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم شريرة!! أحبوا العبودية أكثر من الحرية لأنهم أحبوا قيودهم الذهبية في الأرض!! أحبوا الخطيئة أكثر من البر لأنهم أحبوا اللذة الوقتية ورفضوا الفرح الأبدي!! فكيف لهم أن يتحدثوا عن الحرية بعد ذلك وهم أسرى الأرض ومُريديها، برفضهم نسمات الحرية المُرسَلَة من السماء إلى عالمنا، بالتجسد!!

لقد كانت رسالة المسيح هي أنشودة حرية ينشدها من خلال فعل التجسد، على خرائب ذلك المُعتَقَل الذي ارتمت فيه البشرية بعد السقوط والذي هو [سجن ظلمة رئيس هذا العالم الشرير] بتعبير القديس مكاريوس الكبير (عظة ٤٩).

فقد كان المسيح يسعى لتحريرهم من الداخل، حيث العبودية الحقيقية. فهو الذي نزل من السماء ليأخذ مختاريه وتابعيه والمؤمنين باسمه إلى الأخدار العليا، إلي قدس الأقداس الدهري، إلي مملكة الأحرار إلى الأبد.

وفي نموذج معاصر يجسد لنا الفرق بين الحرية الظاهرة المزعومة والحرية الحقيقية الباطنية، نجد أن المسيحيين في الصين كانوا مُضطهَدين بشدة في القرن العشرين، إلا أن السجون والقيود والآلام لم تقيِّد حريتهم التي كانت تزدهر بالضيقة حيث حضور الله بشكل سري في القلوب، ليشفي

ويعصب ويحرِّر ... فقد كانوا ينشدون تسابيح البهجة والفرح في ملء حرية القلب مبتهجين بعبودية الله المحررة.

وها هي إحدى تسابيحهم التي تشهد على روحهم الوثَّابة في فضاء الحرية، يقدمونها ممتزجة بذبيحة أجسادهم المتألمة والمجروحة على اسم المخلِّص المحبوب، فيقولون:

أنا عصفورٌ في قفص،
بعيدًا عن الأشجار والأزهار والحقول،
كم أنا سعيد يارب أن أكون مقيدًا،
فأغني وأسكب قلبي لك طوال اليوم.
أنت تحب الإمساك بجناحيَّ اللذين يريدان الطيران،
استمع إلي الأغاني التي سأنشدها،
محبتك العظيمة تحصرني،
سأكون عبدك المحبوب الذي لن يهرب أبدًا،
من يفهم مرارة حياة السجون؟؟
لكن محبة الرب تجعلها حلوة،
آه يارب، إني أحب الطريق الذي أعددته لي،
لتسبِّح الخليقة بأسرها، أعمالك العجيبة.

ويحكي أحد الذين زاروا معتقلات الصين الرهيبة، فرأي كيف يتألم المسيحيون في فرح وبهجة؛ فيقول[٤٠]:

كان الضوء خافتًا وكانت الرؤية صعبة،
استطعت أن أميِّز أشكالاً في ركن الزنزانة،

---

[40] Jim Reapsome, *Chains and Hershey's Kisses*, World Pulse, vol.28, no. 18, September 24, 1993, p.9

محتشدة معًا من البرد فوق الأرض الخرسانية العارية.
ولمَّا تكيفت عيناي مع الضوء،
بدأت أتبين وجوه الرجال المضعضعة،
كانوا مقيدين معًا بسلك يخترق أياديهم
ويلتف حول أعضائهم، مما يسبب ألمًا مبرحًا.
كان البؤس مرتسمًا على هذه المخلوقات.
كنت قد زرتهم من قبل،
لكني لم أكد أتعرف عليهم في هذه الحالة الراهنة،
لكنهم تعرفوا عليَّ، فهتفوا:
الغلبة للمسيح،
... إخبر إخوتنا وأخواتنا أننا مسرورون
هنا في المعتقل ...

وإن قارنا بين حس الحرية عند نيتشه الحر!! وحس الحرية عند هؤلاء السجناء المقيدين!! لن يكون صعبًا علينا أن نرصد مشاعر الحرية الصادقة عند الجمع المتألم. فالحرية ليست فلسفة ذهنية خاضعة لمنطق التحليل والتجربة ولكنها حس حياة نرصده حيثما لا نتوقع وحينما لا نتوقع!!

فهي تتواجد حيثما لا يتوقع البشر،
لأن مسيحنا تجسد حيثما لم يتوقع البشر!!

إنها سر داخلي في أعماق الإنسان، يراها تغرِّد على أزهار قلبه المتفتحة على ضياء الحب، فتصير لؤلؤته الثمينة التي يبيع كل شيء ليربحها. يترك كل شيء ويسير خلفها وإذ به يسير خلف المسيح، الذي يلقي على مسامع النفس بكلمة السر

(اتبعني). فتترك النفس الحياة لتربح الحياة التي في المسيح، تترك حرية العالم الزائفة لتُستعبَد لحرية المسيح. وإذ به يقود النفس فوق الزمن وفوق الخطيئة وفوق الشر وفوق الشيطان وفوق المادة، ليريها مملكة الأبد في لحظة صلاة سابحة في سماء الشوق والحب ... فإذ بالنفس تتذوق طعم الحرية وتتنسم عبيرها الفوَّاح من رائحة الروح الذي سكن القلب ليبذر فيه بذرة الأبدية ... التي ليست سوى بذرة الحرية ...

"وحيث روح الرب هناك حرية"

(٢كو ٣ : ١٧)

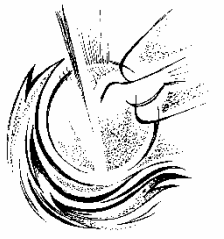

خاتمة

يكتب لنا **باسكال** عن قيمة التجسد من زاوية إنسانية، فيقول:

إنَّ التجسد يبيِّن لنا مدى البؤس
الذي وصل إليه الإنسان،
عن طريق العمل العظيم
الذي احتاجه (الإنسان) للفداء ...

إنه الحدث الفاصل في تاريخ البشرية الذى أعاد تعريف الحياة من جديد على ضوء الأبدية. فهو مركز الثِقَل الإنساني الجديد الذي يحرِّك الوجود الإنساني بأكمله نحو تحقيق غايته المنشودة واستعادة أصله الإلهي المفقود.

إنه الإشراقة الجديدة التي فتحت لنا نافذة الخلود الأبدي حينما نَعبُر علي ذاك السلم الذهبي، المسيح يسوع، اللّه / الإنسان، الذي صار إنسانًا ليصيِّرنا أحرارًا وتخلى عن المجد الأسنى ليعِّد لنا المكان الجديد، لنحيا في مجد البنوة للآب.

حقًا لقد حلَّ التجسد قضايا الإنسان الوجودية، المتمثلة في الأصل والغاية، الهدف والوسيلة، الزمن والموت. لقد أعاد مياه الشر إلى موضعها مرة أخرى بعد أن زحفت على البناء الإنساني

فهددته بالانهيار. ولكن يبقى التجسد سرًا شخصيًا لا يُستعلَن من خلال المعارف العامة ولا من خلال المؤلفات التي تتحدث عنه، فهو ذلك السر الشخصي الذي ينكشف للإنسان تدريجيًا (شأنه شأن كل الأسرار المسيحية، سواء الكنسية أو التدبيرية) بقدر نمو وعيه الروحي ونمو حواس قلبه في قدرتها على اختراق الزمن والمادة اللتين تحجبان قوة السر. وسيبقى التجسد عثرة للعقل والمنطق الذي يريد أن يُخضِع كل شيء لسلطانه وكأنَّ الإنسان ما هو إلا عقلاً متجسدًا!! وطالما أنَّ البشرية أسيرة العقل وحده سيظل التجسد عثرة لقبول المسيح. وسيظل التساؤل الوجودي عن الإنسان دائرًا بين النظرية والواقع، بين الفهم والتطبيق وسيظل الإنسان مبتعدًا عن ذاته متوهمًا أنه يتجه صوب ذاته!!

وأخيرًا، فإن الجانب الوجداني المتفجر فى الشرق يجب أن يوازنه عقلاً راجحًا، يجتهد ولا يرفض، يسعى ولا يتسلط.

وعلى الجانب الآخر، يبقى على الغرب ألا يظلوا أسرى العقل والخبرة المنظورة، لأن الكون سر والإنسان سر والله سر، لا يمكن وضعهم تحت مجهر العقل والمعرفة للوصول إلى صيغ تعريفية قاطعة ومحددة في ذلك السر المركب. ومن الضروري على الغرب أن يوازن بين العقل والوجدان، بين المعرفة والتذوق، بين الذهن والقلب، حتى يستطيع أن يستفيد من العقل دون أن يكون العقل هو حدوده وقيوده التي تحرمه من المعرفة

الحقيقية، المطمورة في أرض السر الذي لا يستطيع العقل أن ينقبه أو يصل إليه.

وحينما يوازن الإنسان بين العقل والقلب ... بين المعرفة والتذوق، سيبصر الحق المتجسد، يسوع ابن الله وسيسبِّح بملء عقله وقلبه ...

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام
وبالناس المسرة

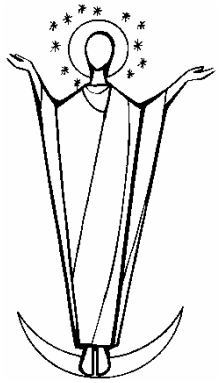

فهرس المحتويات

مدخـــل ٩

الفصل الأول

الإنســان في فكــر الإنســان

ثالـوث الحيـاة ١٥
تـميز الإنسـان ١٧
الزمـن ١٩
الشـر ٢٤
الضميـر ٢٦
الآخـر ٢٩
الحـب ٣٢
الحريـة ٣٧

الفصل الثاني

بـذرة إلهيـة في أعمـاق الإنســان

خلقـة الإنسـان ٤٩
تشـكيـل الإنسـان ٥٠
السقـوط ٥٢
حنـين العـودة ٥٥

حركة دائمة ٥٧
تغيُّر وتجدُّد ٦١
صورة الابن ٦٤

الفصل الثالث

الله والإنسان في المسيح يسوع

في البدء ٦٩
لماذا جاء ٧٤
الميلاد الزمني ٧٨
المسيح والزمن ٨٣
المسيح والشر ١٠٣
المسيح والحب ١١٥
المسيح والحرية ١٢٩

خاتمة ١٤٣

صدر للمؤلف

عهد الصحراء (٤٠ صفحة، ٢٠ سم ـ مارس ٢٠٠٩)

التلاقي بين الله والإنسان (١٤٨ صفحة، ٢٠ سم ـ مارس ٢٠٠٩)

التلاقي بين الله والإنسان

الحرية كما أعلنها الكتاب المقدس
هي حرية جوهرية وليست شكلية
دائمة وليست لحظية،
متحركة وليست ثابتة،
صادقة وليست مزيفة،
ساعية وليست مكتفية،
مجاهدة وليست مرتخية،
بنّاءة وليست هدّامة،
مجسدة للمبادئ وليست مطنطنة بشعارات،
نابعة من الله الحر وليست نابتة من الشيطان المستعبد

BARAMOS MONASTERY

SHIHET WILDERNESS

يطلب من دير السيدة العذراء برموس